عبد الله أبو سنينة

ظلال في العتمة

مجموعة قصصية

عبد الله أبو سنينة

ظلال في العتمة

مجموعة قصصية

إلى من يشقّون طريق المجهول بالإيمان...

القصص

وشاح 1

الإجابة 31

ألعاب للكبار.. 42

دخان 76

السادس من آذار 83

هامش.. 102

وشاح

هناك في البعيد، خلف غابة الخيام، كانت الغيوم الحبلى بالمطر تتقدم نحونا بثبات.

أمّا أمام ناظري مباشرة، كان الأستاذ وجدي ينظف لوح زينكو قبل رفعه لسقف غرفة طوبية صغيرة سيستخدمها لتدريس الأطفال.

جئنا إلى هنا البارحة لنساعد في بناء الغرفة قبل دخول الشتاء؛ فالأستاذ يدرك أن التدريس في الخيمة تحت المطر صعب جدًا، عليه وعلى الطلبة. وهو مصرّ على تدريس الطلبة تحت أفضل ظروف ممكنة، ولهذا طلب مني أن أرافقه إلى هنا لأساعده، وأساعد الشبان والأطفال في إنهاء الغرفة.

نظرت إلى الغيوم، وأملت أننا سننجز عملنا قبل هطول المطر.

كان هناك بعض الشبان الذين يساعدون الأستاذ ببعض المهام الثقيلة، مثل حمل الطوب وألواح الزينكو، وأيضًا أربعة أطفال يساعدونهم بالمهام البسيطة كنقل الأغراض المستخدمة في البناء إلى الموقع، ولم يتجاوز الطفل منهم العشرة أعوام.

أخبرني الأستاذ بأن بعض أهل الخير الحريصين على التعليم، ويسمح وضعهم المادي بذلك، سيتكفلون بتكلفة بناء الغرفة، وبأجور العاملين في بنائها، لكنني أعلم أنه لن يأخذ أجرًا على البناء.

أنظر إليه مكبًا على العمل وأدرك أنه يفعل ذلك لما هو أثمن من بعض النقود؛ فهو يرى العلم والعمل وسيلة لرفع نير القهر عن كاهلنا. وعندما طلب مني مساعدته، عرض عليّ مقابلًا ماديًا. رفضت المبلغ، لكنني قبلت مساعدته؛ فهو علمني القراءة والكتابة بالعربية، وقراءة بعض الكلمات بالإنجليزية، والحساب كذلك، وكان كل ذلك تطوعًا. وأعلم كم سيكون التعليم مفيدًا للآخرين، خصوصًا الأطفال. وقبولي مساعدته كان أقل القليل لرد الجميل.

كنت أسأله بعض الأسئلة الخاصة حول حياته قبل المجيء إلى هذا الجانب من النهر، لكنه لم يجب أبدًا بشكل مباشر. فقط عندما أيقن أنني أصبحت أقرأ العربية جيدًا أراني بعض الصفحات من دفتر يومياته وقال لي، "ستجد هنا ما تسأل عنه، لكن هذه لن تكون قصة وجدي وحده. متأكد أنك سمعت الكثير مثلها، ولكن كتابة التاريخ مهم. كتابة قصتي، وربما قصتك يومًا ما، وقصة كل شخص منا ترسم ملامح حكاية شعبنا."

بدأت قراءة أول صفحة من التي أراني إياها من دفتر يومياته، وكانت تعود لقبل ثمان سنوات تقريبًا.

الأحد

١٩٤٨/٣/٢٨

قبل الدوام المدرسي...

رغم أن الطقس يزداد دفئًا مع مرور كل يوم، إلّا أن زوجتي رأت أنه كان مناسبًا بدء نهارها بتطريز وشاح لي. لفتني لونه الزيتوني، ولكن تعجبتُ اختيارها بداية الربيع لتطريز وشاح صوفي، بالإضافة إلى شكله الغريب نسبيًا. وبينما كنت أتأكد من ترتيب الحقيبة التي أحملها إلى المدرسة، سألتُ زوجتي، "ألا ترين يا مريم أن الطقس دافئ على تطريز وشاح صوفي؟"

"لا تنس أن آذار أبو سبع ثلجات كبار. غير أن الجو يمسي باردًا بعد غروب الشمس."

"معك حق، ولكن لو شعرت بالبرد مساءً أرتدي الحطّة. ليست مشكلة كبيرة."

"صحيح، لكن رأيت طراز أوشحة ملفت عندما كنت في القدس، وودت تطريز شيء شبيه به."

نظرتُ إلى كرة الصوف بين يديها وقلت، "على الأقل اللون كذلك. أقصد أنه ملفت."

"ستراه عندما أنتهي منه. سيعجبك. وأعتقد أن منقذ سيظل نائمًا لساعات، وهذا سيعطيني وقتًا كافيًا للانتهاء منه اليوم."

استدرت ناويًا الذهاب لتقبيل منقذ النائم، إلّا أن زوجتي قرأت أفكاري وهددتني، "لو جعلته يستيقظ، لن تحصل على الوشاح!"

هززت كتفي وأجبتها ممازحًا، "لا بأس. الجو دافئ أصلًا."

"وجدي، أرجوك."

هززت رأسي خاضعًا واقتربت منها وقبّلت جبهتها بلطف، ثم اقتربت من طفلي النائم ونظرت نحو وجهه الهادئ لعدة ثوان. وقبل انصرافي إلى المدرسة، أعطيته قبلة على الهواء.

+++

أمّا هواء المخيم الذي أستنشقه الآن فهو ممتزج برائحة الإسمنت المبتل، والذي أملت أنه سيجف قبل وصول المطر. اقتربت الغيوم أكثر، لكنها كانت لا تزال بعيدة، وهذا أعطانا فرصة لاستراحة أخيرة قبل إكمالنا تجهيز الغرفة.

تجمّع الشبان لشرب الشاي، وكان الأستاذ أبو منقذ آخر الجالسين. نظر نحو الغرفة ثم نحو الأطفال الذين جلبوا كرة ليلعبوا بها.

"ألن تشربوا الشاي معنا؟" سألهم الأستاذ.

"لا!" أجاب أحدهم، وشرح، "لن نستطيع اللعب بحال أمطرت، وهذه فرصتنا الأخيرة للعبة قصيرة. ولا تقلق بشأننا أستاذ، معي سلة فيها طعام بحال شعرنا بالجوع."

هزّ الأستاذ رأسه متفهمًا إجابة الطفل ونظر يتفقد الغرفة، ولم يكن ينقص سوى رفع ألواح الزينكو، وبعض التشطيبات النهائية. كان هناك ثلاثة ألواح زينكو فقط، وغالب التشطيبات كانت داخل الغرفة، أي أنه يمكن القيام بها حتى لو أمطرت.

ورغم أن الغيوم كانت بعيدة، إلّا أنني لم أعد بحاجة لنفث الهواء بكأس الشاي لتبريده.

الأحد

١٩٤٨/٣/٢٨

بعد الدوام...

أحاول أن أظهر متفائلًا أمام طلبتي، حتى لو كان الوضع القائم يدعو لعكس ذلك. وأعتقد أن ذلك ينطلي عليهم، لكن غالب كبار السن يعرفون أن القادم أسوأ.

أمرّ أمام منزل الحاج أبو موسى مرتين يوميًا على الأقل: مرة صباحًا عند ذهابي إلى المدرسة، ومرة عندما أعود بعد الظهيرة. وعادة

ما يكون مستظلًا تحت إحدى أشجاره المزروعة بحديقة صغيرة أمام بيته. اليوم كان يستريح تحت ظل لوزة مثمرة.

ألقيت عليه السلام وأنا أمشي، لكنه استوقفني، "إلى أين أنت ذاهب؟ لم الاستعجال؟"

نظرت إليه مستفسرًا، ليقوم عن كرسيه ويقترب مني طالبًا أن أنتظر وهلة. نظر الحاج أبو موسى اتجاه أحد أبنائه وأمره، "يلّا، يا ولد. اصعد إلى اللوزة والتقط بعضه للأستاذ!"

"الله يسعدك، لا تغلّب نفسك ولا تغلّب الولد!" قلت له.

"سامحك الله، يا أستاذ أبو منقذ، كلها بضعة لوزات لك ولزوجتك وابنك."

هززت رأسي شاكرًا. دقيقتين وإذ بابن الحاج يضع دلوًا ملأه لوزًا أمامي.

"شكرًا لك، يا حاج، شكرًا لك، يا صبي!"

"هذا أقل ما يمكنني تقديمه لرجل محترم مثلك. ألق التحية على مريم."

حملت حقيبتي بيد والدلو بالأخرى. وضعت الدلو أرضًا حتى أطرق باب بيتي.

لا تفتح مريم الباب على مصراعيه عادة، فهي تحب الوقوف به لثوان، تعيقني من الدخول. فعلى حد قولها تريدني أن أشبع ناظري من جمالها قبل أن تكبر. تقول هذا الكلام منذ ثلاث سنين، ولكن على عكس كلامها، هي تزداد جمالًا مع مرور كل يوم. أكثر من ألف مرة وقفَت بالباب ترحب بي، وكل مرة أشعر كشعور النظرة الأولى. لا أتكلم بسرعة؛ فلو فعلت، ستخرج الكلمات متلعثمة، غير منتظمة، كدقات قلبي عند رؤية بريق نظراتها. وأعلم أنني لن أعتاد على ذلك؛ فكلما تفتح لي الباب، كأنها تفتح لي قلبها من جديد. على كل، عندما أتاحت لي الدخول لاحظت أن منقذ كان يمشي بخطوات غير متزنة، لكنه يضحك فخرًا حتى عندما يقع.

يقع الطفل مئات المرات قبل أن يستطيع المشي باتزان، وأتساءل أحيانًا إن كنا نفقد إرادة النهوض بعد السقوط عندما نكبر، أم هل بعض السقطات تتركنا أضعف من أن نقوم مجددًا؟

دخلتُ البيت وأغلقتُ الباب خلفي واتجهتُ نحو منقذ وقبّلته، "هذه بدل القبلة الصباحية التي حرمَتني منها أمك!" ثم نظرت إليها لأرى ردة فعلها.

رمقتني بنظرة متحدية وهددَت، "سأحرمك من أشياء أخرى لو استمررت بمزاحك هذا!"

"مثل أية أشياء؟"

"أنت تعرف قصدي." توقفت مريم عن الكلام لثوان ثم سألَت بنبرة جادة، "كيف الوضع؟"

نظرتُ إلى دلو اللوز وأجبت، "الوضع لوز."

"أنا جادة. أجبني!"

هززت رأسي أحاول طرد الأفكار التي تدور فيه حول الوضع القائم هنا، وزوجتي أذكى من أن أعطيها إجابة كاذبة مطمْئنة. حاولتُ إيجاد كلمات مناسبة لأخبرها إياها، لكن صمتي كان كافيًا لتعرف سوء الوضع.

هزّت رأسها متفهمة صمتي، وقالت تحاول تلطيف الأجواء، "لقد أكملت الوشاح. سأريك إياه!"

داعبتُ منقذ، وكنت أحاول تعليمه أن يقول اسمي، لكن دون نجاح. استطعت أن أعلّم عديد الأطفال والكبار كيفية القراءة والكتابة، لكنني إلى الآن أفشل في تعليم ابني قول اسمي؛ فلغته لم تتجاوز لغة الأطفال غير الواضحة بعد. بعد دقيقتين عادت أمه مع الوشاح الزيتوني.

"ها هو،" قالت، حاملة الوشاح الذي تزيّن بحرف 'دبليو' بالإنجليزية، دون أن تعطيني إياه لأجربه. أكملَت، "لم يذهب تعليمك لي سدى. طرّزت حرفك على الوشاح."

"شكله فريد، يجب عليّ الاعتراف. بالإضافة إلى أنه حرفي وحرف ابني كذلك؛ فلو قلبنا حرف 'دبليو' سيصبح حرف 'إم'، الحرف الأول من اسم منقذ."

"صحيح! هذه لفتة لغوية لطيفة في لغتهم. على الأقل يوجد شيء إيجابي يتعلق بالإنجليز."

ابتسمتُ لتعليقها للحظات قبل أن أشعر بابتسامتي تختفي عندما تذكرتُ أنني أفضّل لو لم أكن بحاجة أن أسمع لا بالإنجليز ولا بلغتهم على قدومهم لأرضنا وكونهم سببًا رئيسًا لحياتنا البائسة. نظرتُ إلى منقذ الذي أنهكه السقوط المتكرر فقرر اللعب قليلًا وهو جالس على الأرض، وأخبرت نفسي بأنه ليس كل شيء حولنا يدعو للبؤس.

+++

بعد أن استأذن أبو منقذ للذهاب لقضاء حاجته بالحمّام الخاص بالغرفة، والذي بنيناه منفصلًا عنها بأمتار قليلة، أشرت للشباب بأن نقوم برفع ألواح الزينكو لتغطية السقف؛ فذلك الجزء الأكثر إرهاقًا بالعمل كله، ولم نكن لنقبل أن يقوم به الأستاذ ونحن في الموقع. ولكن قبل رفعنا للوح، جاء شيخ يشتاط غضبًا ومعه شاب يحمل عصا، والشرر بعيونهم. أسرع الشيخ نحونا وهو يقول للشاب المرافق له، "يلّا، يا ابني!" تسمّرت أنا والشبان عندما أدركنا أن عملنا كان سبب غضب الشيخ والشاب. بدأ يصيح بنا، "اتركوا ألواح الزينكو!"

نظرنا ببعضنا البعض ولم أحر ردًا لكلامه. نظرت إلى الغيوم التي كانت تقترب منا باستمرار، وخمّنت أننا نملك قرابة الساعة لإنهاء العمل، ولكن تدخُل الشيخ قد يطول.

"ماذا هناك، يا حاج؟" سأل أحد الشبان بينما كان يسند لوح الزينكو الأول على جسده يستعد لرفعه على السقف بمساعدة شاب آخر كان يقف على سطح الغرفة.

حملق الشيخ بالشاب على السطح وأمرَه، "انزل!" ثم نظر نحو الشاب الذي يسند لوح الزينكو وقال له بحزم وهو يشير إليه بسبابته، "لن ترفع هذا اللوح!" بعدها نظر إلى بقيتنا وإلى لوحَي الزينكو الآخرين يتفقدهما. نظر الشيخ بوجه ابنه، والذي بدوره هزّ رأسه يمينًا وشمالًا، وأشار إلى اللوح الأول الذي كان أحد الشبان على وشك رفعه. اقترب الشيخ من الشاب وأمره مجددًا، "لا ترفع هذا اللوح!"

"لمَ لا؟" سأله الشاب.

بدأ صبر الشيخ ينفذ فصاح بالشاب، "'لمَ لا؟' سأخبرك لما لا!"

كان كلام الشيخ مجبولًا بالأسى، ورغم أن الموقف لم يكن يدعو لذلك إلى هذا الحد، إلّا أنه كمفتاح يفتح الباب على لحظات أشد قسوة. وخلال الفترة التي أساعد فيها الأستاذ، لا أفكر بأمر أكثر قسوة مما حصل معه قبل مجيئه إلى هنا.

الجمعة

١٩٤٨/٤/٢

بعد صلاة الفجر...

أكتب عن هذا اليوم بعد أكثر من أسبوع على مروره؛ فكتابة ما حصل خلاله ثقيل عليّ. هذه اليوميات خاصة بالأساس، وما فائدة تذكّر شيء أحاول إبعاده عن ذهني؟ لكن ما حصل الجمعة الفائتة بدير ياسين غيّر رأيي حول هذه اليوميات؛ فالآن أرى الكتابة عنّا مسؤولية جماعية، وما أكتبه عمّا حصل معي هو قطعة واحدة لصورة من عدة قطع تُظهر ما حصل معنا... ولا يزال.

بزغ ضوء النهار، لكن قرص الشمس لم يكن ظاهرًا بعد. طَرَق أحمد، ابن عمّي، بابي. كنت أذهب معه إلى الصيد أحيانًا، وأراجع ما علّمته إياه من حروف.

انتبهَت مريم إلى صوت طرق الباب، واقترحَت بينما كانت لا تزال متمددة على الفراش، "هل تريدني أن أصنع لكما الشاي؟"

"كلا، حبيبتي. عودي إلى نومك."

"حسنًا. لا تتأخر. سأنتظرك حتى نشرب الشاي معًا."

"موافق. لن أتأخر عليك. أعدك!"

لكن ليست كل الوعود يوفى بها...

أحمد في الخامسة أو السادسة عشرة من عمره، ولم يعد يذهب إلى المدرسة؛ فهو تفرّغ تمامًا لمساعدة والده في رعاية الأغنام لعدم وجود أخوة له، وهو يهوى الصيد كذلك، ويبيع معظم الطيور التي يصيدها.

"أتعلم، يا أستاذ،" بدأ أحمد حديثه عندما كنا بالطريق إلى جبل يصطاد فيه، ويبعد عن القرية حوالي أربعين دقيقة مشيًا.

"ماذا هناك؟"

"كيف يمكنني أن أخبر فتاة بأني أحبها؟"

توقفت مكاني لثوان وسألته، "هل هذا سؤال فرضي أم هناك فتاة معينة؟"

"لا أعلم. أقصد... ربما... في الحقيقة... هي مجرد... مشاعر. رغم أنني صغير بالسن، إلّا أنني، لا أعلم صراحة، ربما... أشعر بأني قادر على حمايتها... فأنا ماهر باستخدام البارودة الآن."

"أعلم أنك قناص جيد. المهم، هل أنت متأكد بأنك تحبها؟ هل تحبك هي كذلك؟"

"نعم. أظن ذلك. شبه متأكد... أنها تحبني... فهي تقول لي صباح الخير معظم الأيام."

ضحكت عندما سمعت إجابته، ولتلعثمه كذلك، لكنني غطيت ضحكتي واستأنفت المشي ولم أرد عليه، ليكمل، "وقبل يومين قالت لي 'صباح الخير، يا أحمد!'"

"ذكر اسمك مع تحية الصباح مؤشر قوي لحب الفتاة لك."

"هل تستهزئ بي؟"

"أبدًا. لكن والدك يبحث عن عروسة الآن، الله يرحم أمك، وليس مناسبًا أن تتزوج قبله. بالإضافة إلى أنني أرى أن تركز الآن على عملك."

هزّ رأسه موافقًا قبل أن يقول، "حسنًا. لكن سأهديها أجمل طائر أصيده اليوم."

من الأفضل لأحمد أن يصيد عددًا كبيرًا من الطيور كي يبيعها، لكن يومها لاحظت أنه لم يبحث عن اصطياد أعداد كبيرة بقدر بحثه عن طائر جميل يصلح كهدية لمحبوبته. وعندما فعل، صاح فرحًا، "هذا لك، يا زهرة!"

دون أن يتكلم معي، وضع الطير بقفص واتجه لفكّ عدّة الصيد، وكأنه أنجز المهمة، رغم أنني لم أراجعه بكل الحروف التي درّسته إياها. على كل، رؤيته متشوقًا لإهداء الطائر لزهرة جعلتني أتناسى أنه لم

يراجع كل ما يمكن مراجعته يومها. ساعدته بحمل العدّة واتجهنا عائدين إلى القرية منتشيين بتغريدات الطائر.

تحوّل غناء الطير إلى صراخ عندما كنا على مشارف القرية. ظننت لوهلة أن الطائر اكتشف أخيرًا أنه داخل قفص، لكن بعد ثوان لاحظنا أن صراخ الطائر امتزج بصراخ قادم من القرية. نظرت بوجه أحمد لأتأكد أنه سمع الصوت نفسه، وعندما تكون بقرية لا يتجاوز سكانها المئتين وخمسين فأنت تعلم أن أي مصيبة تحصل لأي فرد في القرية ستؤثر عليك؛ فأنت تعرف كل سكانها إمّا قرابة، أو نسبًا، أو صداقة.

هرعنا إلى القرية وأول ما وجدناه كانت أغنام عمّي أبو أحمد، وكان بعضها مرميًا على الأرض التي كانوا يرعون فيها والدماء تسيل منها، تغطي العشب الأخضر الطويل. لم يأخذ الأمر أكثر من ثانية حتى أدركت ما حصل: مرّت العصابات الصهيونية المسلحة من هنا.

ثوانٍ أخرى ووجدنا جثة عمّي بين العشب، وكانت سبابته على زناد بارودته. سقط أحمد يمسك والده يحثّه على الاستيقاظ. هزّه من صدره يستحلفه أن يستيقظ، ولم يتركه حتى بعدما تخضبت يداه بالدماء النازفة من صدر والده. "لم تركتني وحيدًا؟" سأل الجثة الهامدة. "لماذا؟ لماذا؟" وعندما لم يسمع إجابة وضع رأسه بجانب رأس والده يحتضنه، وقال، "لم أسمعك. ها أنا اقتربت. أجبني! لماذا تركتني وحيدًا؟"

كانت ركبتاي ترتجفان، لكنني تماسكت نفسي من السقوط. كنت أود أن أظل مع أحمد أهدئ من روعه قدر الإمكان، لكنني كنت لا أزال أسمع الصراخ قادمًا من القرية، فأدركت أن عمّي ليس الضحية الوحيدة.

لم تترك مريم باب البيت مفتوحًا أبدًا، وعندما رأيته كذلك كأن بابًا فُتح على أسوأ كوابيسي. ركضت نحو الباب لأجد أغلفة طلقات نارية أمامه.

كانت العادة أن أجد مريم تستقبلني بكل ودّ عند باب البيت، لكن عندما دخلته حينها لم أر سوى السواد. لحظات وتكيّف نظري لأجدها، لكنها لم تكن باستقبالي. كان جسدها على الأرض، ظهرها لي وطلقتان مزروعتان فيه بجانب بعضهما كأنهما عينان تنزفان.

اعتدت أن أكتب ما أشعر وأمر به بشكل شبه يومي، لكن بعض الأمور لا تكفي الكلمات للتعبير عنها، وربما لذلك وُجد الصراخ. وهناك صراخ مثل الذي كنت أسمعه قادمًا من الخارج، وهناك النوع الآخر، النوع الذي لجأت إليه... الصراخ الصامت.

لم تعد ركبتاي تتحملان فسقطت جاثيًا عندها. قلبت جسدها فإذ بذراعيها تحيطان بمنقذ، الذي ما أن رآني صاح مبتهجًا، غافلًا عمّا حصل للتو، "وَدّي! أبّا!" كانت تلك أوضح مرة يقول فيها اسمي. ولم يصَب منقذ بأذى، فأمّه حمته بجسدها.

لم ينقطع الصراخ القادم من الخارج، وخفت أن ينتبه منقذ لذلك فحاولت القيام لإقفال البيت، إلّا أن جسدي خانني. كيف لا يخونني ومن كان سندي صار جثة هامدة أمامي! قرّبت جسدها مني وكان لا يزال دافئًا على عكس عينيها اللتين فقدتا بريقهما. ذلك البريق الذي كان شمسًا بسمائي، وبغيابه، أمست دنيتي حالكة. قرّبت أصابعي من وجهها وأغمضت عينيها، وكنت أتمنى أنني سأفتح عينيّ على صوت طرقات أحمد على بابي، وأن أكتشف أن ذلك كله كان كابوسًا. كان كابوسًا بالفعل، لكنه ليس واحدًا نراه بنومنا بل واحدًا نعيشه.

ظللت بجانب زوجتي وابني لدقائق، عالمًا أنها المرة الأخيرة التي سنفعل ذلك معًا.

حتّى في أحلك اللحظات، لم تتوان مريم عن حماية ابننا، ولهذا كان عليّ أن أتأكد أن تضحياتها لم تذهب سدى. أمسكتُ يد منقذ واستجمعت قواي وقمت عن الأرض، وعندما نظرت إلى الباب، رأيت شكلًا ظليًا لفتى يحمل بارودة تكاد تسبقه طولًا.

"الله يصبّرك!" جاء صوت أحمد مكتومًا، ورمى بمسدس نحوي.

+++

اقترب ابن الشيخ من والده رافعًا العصا التي معه. مشيرًا إلى لوح الزينكو، استمر الشيخ في الصراخ بوجه الشاب، "اترك هذا اللوح

مكانه! هذا اللوح لي. لن أسمح لك بسرقته! فهو حقي وأنا لا أسمح لأحد بسرقة حقي!"

لم تخرج كلمة 'حقي' من الشيخ بالشدّة ذاتها التي خرجت الكلمات التي سبقتها؛ فهي كادت تكون مخنوقة. أدار الشيخ رأسه نحو الخيام والغرف الطوبية التي تحيط به، فطأطأ رأسه صامتًا نحو الأرض. هو بالتأكيد أدرك أنه لا يقصد ما قاله؛ فكيف يقصده وهو خسر كل ما لديه ولم يستطع مواجهة السارق؟ ولو سألته عما خسر لن يكون للوح الزينكو من ذكر؛ فهو لا يقارن بما خسره قبل المجيء إلى هنا، وقبل حاجته إلى ألواح الزينكو من الأساس. ربما كان يكره لوح الزينكو ذلك حقًا؛ فالشيخ، كأي فلّاح، لن يختار أن يكون لوح زينكو فوق رأسه بدلًا من معرش الدوالي أو شجرة لوز مخضرة. لكن ربما جاء احتجاجه الأوليّ لأخذ اللوح منه كردة فعل بأنه لن يفقد كل شيء، وأنه سيقاتل كي يحافظ على ما لديه. أو بشكل أدق، ليحافظ على ما يستطيع المحافظة عليه، لكن نظراته حوله فضحته بأنه يشعر بأن ما يحيط به الآن لا يستحق عناء القتال. وهل هناك حزن على ضياع الفتات بعدما سُرق الرغيفُ!

خرج الأستاذ وجدي من الحمّام وكان واضحًا أنه سمع كل ما دار. بدأ حديثه بهدوء مع الشيخ، والذي كان يدير ظهره للأستاذ، "لا تقلق، يا حاج أبو موسى... نحن لا نأخذ حق أحد!"

استدار الحاج نحو الأستاذ مستغربًا، "هذا الصوت ليس غريبًا! أستاذنا أبو منقذ الغالي!"

اقترب الحاج من الأستاذ واحتضنه، وأطالا العناق، فلا بد أن لحظات العناق تلك أعادت لهما ما يمكن إعادته من الماضي، الماضي الذي يود جميعنا أننا لا نزال نعيش فيه. هي لحظات قليلة، لكنها تذكّرهم بالكثير، والذكريات ضمن الأشياء القليلة التي لا تستطيع الترسانة العسكرية والعصابات المسلحة سرقتها، وكانت تلك أثمن ما يملكه معظمنا.

"أستغفر الله!" قال الحاج بعدما فكّا عناقهما.

رفع الأستاذ حاجبه نحو الأطفال مستفسرًا عن المكان الذي جاؤوا منه باللوح، ليظلوا صامتين لوهلة قبل أن يتكلم أحدهم، "ظننا أنه لا يريده أحد. فهو كان متسخًا جدًا..."

ابتسم الحاج لرد الطفل، ثم أشار لابنه بمساعدتنا بإكمال البناء بعدما نظر نحو الغيوم التي كانت تقترب مع كل لحظة، وقال، "حسنًا. أكملوا عملكم، وسأجلب لكم الشاي."

"لقد شربنا لتونا!" رد أحد الشبان.

"فلتشرب مرة أخرى!" قال الحاج وهو يمشي مبتعدًا.

الجمعة

١٩٤٨/٤/٢

بعد دفن الشهداء...

بعيد غروب الشمس، وبعد انتهائنا من دفن الشهداء التسعة، تناقشنا حول الفعل الأنسب بالساعات القادمة. قرر المعظم البقاء في القرية رغم المخاطر التي يحملها ذلك القرار؛ فلم يكن هناك ضمان لعدم عودة العصابات المسلحة للقرية، وقرر قسم آخر الذهاب إلى قرى أخرى اعتبروها أكثر أمانًا. أمّا نحن، من زار الموت عائلاتهم، قررنا ترك البلاد والذهاب إلى ما وراء النهر.

وضّبنا الذكريات قبل المتاع، وكنا نتمنى لو كان بالإمكان دفن ذكرى ذلك اليوم مع جثامين الشهداء. حمل كل منا مأساته وانطلقنا تحت ضوء الهلال الذي أبان ملامح الطريق أمام أعيننا، إلّا أن قلوبنا كانت مظلمة؛ فالشعور بالقهر وقلة الحيلة قتل شيئًا ما فينا، فأمسينا نمشي منطفئين مثل ظلال في العتمة.

لم أرتدِ الوشاح الزيتوني أمام مريم، لكنني ارتديته عندما انطلقنا. لا أعلم سبب ارتدائي إياه بالضبط: هل كان برودة الجو بالمساء، أم رغبتي

بتذكر بهجة مريم عندما كانت تطرزه، أم ربما لحاجتي للمس شيء يحمل عطرها.

حمّلنا النساء والأطفال والمتاع على الأحصنة، أمّا الرجال فترجلنا الطريق، وكنا نركب حصانًا واحدًا بالتناوب لنأخذ قسطًا من الراحة. على كل، لم يقبل أحمد أن يركب الحصان ويراني أترجل بادئ الأمر، إلّا أن إصراري أقنعه بضرورة إراحة قدميه. قلت له، "لن نستطيع الوصول الليلة بأي حال من الأحوال، وعلينا أخذ قسط من الراحة، وستكون أنت ممن يسهر لتفقد محيطنا. لهذا عليك أن ترتاح."

هزّ رأسه مقتنعًا.

كلما سنحت له الفرصة، التفت أحمد اتجاه زهرة، والتي فقدت أخاها يومها. وبعد وقت اقترب مني وسألني، "أعلم أنك كنت تحب مريم. ربما أكثر من حبي لزهرة، وأعلم أنك تتألم لفراقها. لكن هل أنت نادم لمعرفتها بعد الفراق؟ هل تتمنى لو أنك لم تعرفها بعدما شعرت بهذا الألم؟"

"زواجي بها كان الفعل الأكثر صوابًا في حياتي."

ابتسم أحمد لإجابتي واتجه نحو أحد الأحصنة التي تحمل المتاع، وحمل القفص الذي يحتوي على الطائر الذي اصطاده صباح تلك الجمعة، ثم اقترب من الحصان الذي كانت تركبه زهرة. لم أسمع ما دار بينهما، ولم أستطع تمييز ملامح وجهيهما. انتقل تركيزي إلى الحصان

الذي كان يركبه منقذ برفقة امرأتين أخريين. انتبهت أنه كان مستيقظًا، فطلبت من إحداهن أن تعطيني إياه.

مسكت يده الصغيرة وجعلته يمشي بجانبي لأمتار قليلة، وكان سعيدًا لتحسن مشيه؛ فهو لم يعد يسقط كما كان يفعل قبلها بأيام. لاحظت أن الجو أصبح أكثر برودًا فخلعت الوشاح عن رقبتي وألبسته إياه. وتخيلت ذراعا أمه تحتضنه؛ فما زال عطرها على الوشاح.

بعد دقائق أعدت منقذ للسيدتين وواصلنا المسير.

عند منتصف الليل تقريبًا، وصلنا لتل عند سفحه أشجار كثيفة، وكان هناك مفرق يتفرع إلى ثلاثة طرق. ارتأى أحد الرجال أن نتوقف هناك لدقائق، وأشار أنه سيقضي حاجته. وافقنا على كلامه، وذهب بعضنا لقضاء حاجته كذلك.

بينما كنت أسير مبتعدًا عن الآخرين، باحثًا عن صخرة أو شجرة أستتر بها عند قضاء حاجتي، هرول أحمد ليلحقني، وقال، "لقد ابتسمَت عندما أعطيتها العصفور."

ربّتُّ كتفه مهنئًا، ونظرت إلى الخلف اتجاه من كان عند الأحصنة لأرى أنهم لا يستطيعون رؤيتي، وبالكاد كان صهيل الأحصنة مسموعًا.

"سأقضي حاجتي أنا أيضًا،" قال أحمد واتجه نحو شجرة أبعد من تلك التي اتجهت أنا لها.

ابتعد عني حوالي ثلاثين مترًا، ولكن مع الهدوء المحيط استطعت سماع بكاء أحمد. كان واضحًا أنه يحاول كتمه، لكنه لم يستطع. رغم علاقتي المقربة منه، إلّا أنه فضّل الابتعاد عني ليبكي، وهذا أحزنني عليه أكثر؛ فعلى ما يبدو أنه أصبح وحيدًا أكثر مما ظننت بادئ الأمر.

انتهيت من قضاء حاجتي، لكنني فضّلت انتظاره، لكن طالت المدة أكثر من المعتاد بكثير، وهو لطالما ذهب لقضاء حاجته عندما كنا نذهب للصيد معًا، ولم يأخذ أبدًا حتى نصف تلك المدة.

على كل، لم أرغب باستعجاله، ولم أتحرك من مكاني إلّا عندما سمعت خشخشة قادمة من اتجاه الشجرة التي استتر بها. انتظرت لثوان أخرى دون أن يظهر. اقتربت من مكانه عدة أمتار فسمعت خشخشة مرة أخرى، لكنها لم تكن قادمة تمامًا من مكان أحمد.

"ضبع!" قلت لنفسي، وأخرجت المسدس الذي أعطاني إياه ذلك النهار.

كنت على وشك المناداة عليه وإخباره بأن لا يقلق بحال سمع صوت عيار ناري، ولكنني حسبت رعب من بقي عند مفرق الطرق عند

سماع صوت إطلاق النار، ولهذا ترويت قليلًا واقتربت من مصدر الخشخشة.

ما حصل كان عكس ما توقعت، فصوت إطلاق النار جاء من الخلف، من مكان استراحة من بقي عند المفرق.

"ضباع!" فكرت بنفسي، "هذا سيرعب الأحصنة وسيجعلها هوجاء!"

حاولت العودة مسرعًا اتجاههم، بيد أن صوت الخشخشة اقترب مني، فانتظرت الضبع أن يظهر وأنا مشهر المسدس نحوه.

صوت إطلاق الرصاص عند المفرق لم يتوقف، وكان أكثر من ذلك... كان تبادل إطلاق نار!

ظهر شابان مسلحان أمامي وصاحا بلغة الغرباء، وقبل أن يشهرا رشاشيهما أطلقت النار على أحدهما، ولكن الثاني سقط كذلك. حينها رأيت أحمد خلفه مشهرًا بارودته والدخان يتصاعد من فوهتها.

"الآخرين!" صرخ أحمد، وتحت أزيز الرصاص، هممنا بالركض اتجاههم قبل سقوطه صارخًا، "كاحلي!"

سحبته بسرعة واختبأنا خلف صخرة، وكنا نعلم أنه من السهل إيجادنا. كان خدشًا، ولم تستقر الرصاصة بكاحله. كتم صراخه وحضّر بارودته لإطلاق النار مجددًا. استعددت أنا كذلك، فأصوات خطوات المسلحين كانت تقترب.

لاحظت أن صوت تبادل النيران عند مفرق الطرق توقف، وخفت أنه تم القضاء على كل من كان هناك. حاولت أن أركّز على القادمين نحونا، وكيف سنحاول الصمود ضدهم، لكن صورة منقذ مقتولًا احتلت رأسي.

"كم رصاصة لديك؟" سألني أحمد.

"خمس."

"حاول إصابة الرأس إذن!"

لم يفقد تركيزه حتى في تلك الظروف، وكان يفكر بمنطقية حول كيفية التخلص من أفراد العصابة.

وبما أنكم تقرأون هذه اليوميات الآن، فأنتم تعرفون أنني نجوت، وسأخبركم من الآن أن أحمد نجا كذلك. لكن من نجا لم يكن أحمد ذاته، وكأنه مات ثم أعيد بعثه بشخصية جديدة بعد ذلك اليوم. نظر إليّ ببرود وقال لي بحزم لم أعهده خلال أحاديثه السابقة معي، "اهدأ!"

وضع البارودة على الصخرة وقنّص اتجاه الأشجار التي تتحرك خلفها بعض الظلال. غطيت أذني بيدي وكتمت نفسي. أطلق رصاصة كاد صوتها يثقب أذني المغطاة. ورغم الطنين الذي دوّى بأذني، إلّا أنني كنت قادرًا على سماع أنين صادر من المكان الذي أصابه أحمد. ثانية بعد ذلك، طلقة أخرى... أنين آخر. لكن عندها بدأ الرصاص يُطلق اتجاهنا، فتوقف أحمد عن إطلاق الرصاص واحتمينا بالصخرة.

"سأبدّل مخزن الذخيرة الآن!" أنبَهني، فأدركت أنه يقصد بأن عليّ أن أغطيه، وأن أحاول منع تقدم أفراد العصابة المسلحين. أطلقت أربع رصاصات باتجاه المسلحين فهدأ هجومهم لوهلة. كدت أطلق المزيد من الرصاص، لكنني تذكرت أنني لم أعد أمتلك سوى رصاصة واحدة، ففضّلت تركها لوقت لاحق.

انتهى أحمد من تلقيم بارودته. لم نستطع رؤية أي من المسلحين الذين توقفوا عن إطلاق الرصاص، لكنهم كانوا لا يزالون هناك فلم نتحرك.

كان هاجس إيجاد منقذ مقتولًا لا يفارقني، وبدا ذلك عليّ؛ فطلب مني أحمد مرة أخرى أن أهدأ. نظرت بوجهه مليًا، وكأنه لم يكن ذلك الشخص نفسه الذي أخبرني بحبه لفتاة قبلها بساعات فقط. على عكس تلعثمه حينما أخبرني عن زهرة، كانت أنفاسه منتظمة، وكلماته مختصرة ومنتقاة بعناية بينما كنا نحتمي بالصخرة.

"لقد سمعت صوت إطلاق رصاص عند المفرق. هناك مسلحين غير هؤلاء،" قال وهو يشير نحو الأشجار التي كنا نراقبها.

هززت رأسي موافقًا.

خفنا أن يأتي بقية المسلحين من خلفنا، لكن بعد ثوان رأينا ظلالًا تتحرك وتقترب من المسلحين المختبئين خلف الأشجار. لم يكن عددهم

كبيرًا جدًا، لكن نحن على اليد الأخرى، لم نكن سوى اثنين، غير أننا لم نمتلك الكثير من الذخيرة.

تحركنا بهدوء خلف الصخرة، وانتقلنا لصخرة أكبر وأبعد قليلًا عن الأشجار من الصخرة السابقة. لم يكن من الذكاء أن نبدأ إطلاق النار عليهم؛ فذلك سيفضح مخبأنا الجديد.

لحظات وسمعنا سقوط شيء عند الصخرة التي كنا خلفها قبلها بدقائق، وإذ بها قنبلة يدوية انفجرت وقلبت الصخرة من مكانها. حينها بدأت تتسارع أنفاس أحمد، واتضح أننا حوصرنا.

صرخ المسلحون فرحًا بعد دويّ انفجار القنبلة. تقدم ثلاثة منهم نحو مكان الانفجار وكانوا مكشوفين لنا لو أردنا إطلاق النار عليهم، لكن كنا نعلم أننا لو أطلقنا النار عليهم سنفضح مكاننا، غير أننا لن نكون قادرين على القضاء على المختبئين خلف الأشجار.

على الرغم من ذلك، ظننا أنه لا مفر من المواجهة معهم؛ فعندما يقتربون من مكان الانفجار ولا يرون أثرًا للجثث، سيمسحون المنطقة المحيطة بحثًا عنّا، وعندها لا مفر من المواجهة. عندما كان الثلاثة على بعد عشرة أمتار من الصخرة، أخرج أحدهم قنبلة أخرى ورماها، وأنزلوا رؤوسهم للاحتماء، وتزامنًا مع لحظة انفجار القنبلة، قام أحمد من خلف الصخرة وأطلق رصاصتين أسقطت إثنين منهم قبل أن تعلق

بارودته. لم أنتظر أكثر فأطلت عنقي من وراء الصخرة لأحدد مكان الثالث، ثم أطلقت عليه الرصاصة الأخيرة فسقط قتيلًا.

نظرنا ببعضنا فعلمنا أنه لا مجال للمقاومة بعد ذلك؛ فبارودته عالقة ولن يستطيع إصلاحها دون فضح مكاننا، غير أن ذلك سيأخذ وقتًا طويلًا. وأنا على الجهة الأخرى، لم يعد معي أية رصاصة. اتجه نظرنا بعدها نحو الظلال خلف الأشجار، وكان واضحًا أنهم لم يكونوا أكثر من ثلاثة. بدا أنهم ترددوا بالخروج من خلف الأشجار عندما رأوا زملائهم مقتولين على الأرض، دون علمهم مصدر الرصاص.

لحظات ورأينا الظلال تنسحب بعيدًا.

لم نتحرك بسرعة من خلف الصخرة، وعندما فعلنا ذلك بعد قرابة عشرين دقيقة، اقتربنا من جثث المقتولين واستولينا على أسلحتهم.

اتكأ أحمد على كتفي، وعدنا نحو مفرق الطرق نخشى الأسوأ. من بعيد، رأينا بعض الجثث على الأرض، لكن لا أحصنة.

كان هناك أربعة من رجالنا على الأرض: ثلاث جثث هامدة والرابع يحتضر.

وضعت أحمد أرضًا واقتربت من الرجل وسألته، "ماذا حصل، يا أبو خليل؟" وكان نظري يدور يمينًا وشمالًا بحثًا عن الآخرين، وخصوصًا منقذ. لاحظ أبو خليل ذلك فطمأنني، ووجدت الأمر غريبًا أن

يكون الذي يحتضر هو من يطمئن السليم، "لا تقلق! إنهم بخير. لقد هربوا دون إصابات."

"من أي طريق ذهبوا؟"

رفع يده يشير لي اتجاه الطريق، لكنها لم ترتفع سوى سانتيمترات فوق صدره المدمي قبل أن تسقط، ويخرج نفسه الأخير.

نظرت إلى أحمد وهززت رأسي. ربما لو وصلنا قبل دقيقة لعرفنا أين ذهب الجميع.

عدت إلى أحمد، وتفقدت إصابته، وكنت أعلم أنه حتى لو علمنا أي طريق سلكوا، فلم يكن عندنا القدرة على اللحاق بهم. نظرنا إلى الجثث المرمية على الأرض وفكرنا بما علينا فعله: دفنها، أم تركها وكسب الوقت لإكمال طريقنا.

"كيف سنجدهم؟" سأل أحمد.

"لنجد من يضمد جرحك الآن،" أجبته وساعدته على النهوض، قبل أن أكمل، "من السيء أن تنزف المزيد من الدماء!"

تاركين الجثث خلفنا بين أحضان الليل، بدأنا نسير إلى ما وراء النهر، موقنين أن بعض الجروح لا يمكن تضميدها.

+++

كان هناك بعض الصفحات الأخرى من تلك التي أشار أنني أستطيع قرائتها في يومياته، لكنني لم أفعل. أعدت له الدفتر رغم أنني كنت

أرغب ببعض الإجابات. وكأنه قرأ أفكاري، أجابني باقتضاب، "بحثت عنهم في المخيمات لشهور بعدما وصلت هنا. وأسأل كل طالب من أي قرية جاء. لكن دون جدوى إلى الآن."

اكتفيت بإجابته ولم أسأله عن ذلك الأمر مجددًا.

أمّا بالنسبة لبناء الغرفة، أمسى التحكم بالألواح صعبًا بفعل الرياح العاتية التي كانت تزيحها يمينًا وشمالًا، بالإضافة إلى شعورنا بالبرد. لم تكن الغيوم فوقنا مباشرة بعد، لكن البرد والعتمة سبقاها.

نجحنا بالانتهاء من رفع الألواح وتثبيتهم على السقف قبل وصول المطر الذي بدا أنه سيتأخر قليلًا.

احتمى الأستاذ وجدي من الرياح عندما جلس أمام غرفة قريبة من الغرفة التي أنجزناها لتوّنا. وجلس على يمينه أحد الأطفال الذين ساعدونا بالبناء.

كان نظر الأستاذ مثبتًا على شماله إلى الغرفة التي سيدرّس بها، وعليه أمارات الرضا. لم يأبه لبعض آثار الغبار التي كانت على ملابسه، فعلى ما يبدو، نشوته بإنجاز الغرفة أنسته ذلك. وربما كان لإنجاز الغرفة مفعول أكبر من مجرد جعله ينسى إزالة الغبار، فهي ساعدت بإزالة الهموم عن باله، حتى لو لوقت قصير. علت ابتسامة واسعة وجهه. لم تكن ابتسامته مصطنعة؛ فهو لم ينتبه أنني كنت أراقبه، وعندما يبتسم

الشخص بينه وبين نفسه تكون الابتسامة صادقة. وابتسامة واحدة في الظل أصدق من ألف في الضوء. وبدا أن لا شيء قادر على إزاحة نظر الأستاذ عن الغرفة.

أمّا نظري فاتجه ناحية يمين الأستاذ، حيث جلس أحد الأطفال، والذي ظهر أنه بدأ يشعر بالبرد؛ فهو وضع سلة صغيرة بجانبه وبدأ يتفقدها بينما كان يضم كتفيه إلى صدره بسبب البرد. أخرج من السلة وشاحًا صوفيًا ولفّه حول عنقه. ورغم العتمة التي حلّت بسبب الغيوم الكثيفة التي غطت الشمس، وقِدم الوشاح، إلّا أنني ميّزت لونه الزيتوني، وكنت كذلك قادرًا على تمييز تطريز عليه على شكل حرف 'دبليو' والذي إذا قلبته يصبح حرف 'إم'.

******

الإجابة

أفكّ الزر الأعلى لقميصي قبل أن أمسح خط العرق الذي تشكل على رقبتي عند ياقته.

أناظر الساعة المعلقة على حائط المكتب ولم تدق التاسعة بعد. يا للهول! كل هذا الملل ولم يمر أكثر من ساعة على بدء دوامي. أُخرج هاتفي وأنظر إلى ساعته علّها تعطيني وقتًا آخر.

لا فائدة.

أنظر نحو الملفات فوق المكتب. لن أسميه مكتبي؛ فأنا لا أنتمي إلى هذا المكعب الحجري. أنتمي إلى الميدان حيث أطارد المجرمين، لكن ها أنا ذا، تحولت لطريدة بدوري... طريدة للضجر.

"لدي شيء قد تود رؤيته!" يقول لي زميل لا أذكر اسمه.

أهزّ رأسي موافقًا؛ علّ ما سيريني إياه يكون مثيرًا، أو على الأقل، أقل مللًا مما أنا فيه.

يشير لي الزميل باتباعه نحو مكتبه.

نجلس خلف جهاز حاسوب تعرض شاشته مقطع ڤيديو. يضغط زميلي زر التشغيل فنرى شابًا أشعث الشعر، غير مهذب الهندام، يتحدث مع

الكاميرا، "كان بالإمكان أن يكون هذا من أفضل الاختراعات للبشرية، إلّا أنه قد يساء استخدامه فيصبح كارثيًا. لا أستطيع إصلاحه ولا يبد..."

يدير الشاب الذي في الڤيديو رأسه نحو يساره متفاجئًا بدخيل. نستطيع سماع تمتمة رجل يقول "مستحيل!" بيد أنه لا يظهر أمام الكاميرا فورًا. يهاجم الشابُ الدخيلَ فيتلقى الشاب ضربة بسكين على رقبته تسقطه أرضًا. يظهر المعتدي أمام الكاميرا مرتديًا قناع نايلون على وجهه وقلنسوة على رأسه ويطفئ الكاميرا. لا نستطيع رؤية أي شيء أسفل رأس المعتدي.

ينتهي المقطع هنا، لكن لا يتوقف قلبي عن النبض بسرعة. أدرك فورًا أنها جريمة قتل يتم التحقيق فيها.

لو كنت لا أزال محققًا ميدانيًا لربما عملت على القضية.

يخبرني زميلي، "اتصل الشاب بالشرطة. لم يقل شيئًا، ولسوء حظه لم ينجُ."

"من الغريب أنه استطاع الاتصال بالشرطة من هاتفه بالرغم أن القاتل استخدمه عندما أوقف الكاميرا!"

"ربما ترك القاتل الهاتف واستخدمه الشاب بعدها. فعلى ما يبدو ظل حيًا لدقائق بعد الضربة."

أفكر لثوان بمنطقية فرضية زميلي. أسأله وكلي فضول، "ما الاختراع الذي يتحدث عنه؟"

"لا أعرف، لكن يبدو أن الشاب عانى من جنون العظمة."

أرغب بسؤال زميلي عمّا إذا تم إيجاد الڤيديو على الهاتف بسهولة أم أنه تم استرجاعه من الملفات المحذوفة. أود كذلك سؤاله إن كان هناك ڤيديوهات غير الذي شاهدناه، لكن ينتابني شعور أن محاورته عن الجريمة لن تتعدى مجرد محادثة تملؤها الفرضيات؛ فمن الواضح أنه لا يعرف تفاصيل الجريمة. وأنا لا أريد إضاعة وقتي بهكذا حديث، بل من الأفضل أن أنبش وراء الحقيقة بنفسي.

في هذه اللحظة أفكر بأن أطلب أن يتم تعييني على القضية، بالرغم من أنه تم تقليل رتبتي وتعييني في وظيفة مكتبية.

"شكرًا لأنك أريتني الڤيديو؛ فهو الشيء المثير الوحيد الذي حصل لي في عملي منذ تم تعييني هنا،" أقول للزميل.

"أتبحث عن العدالة أم عن الإثارة؟"

"الآن أرغب بالبحث عن القاتل."

"غريب قولك 'بالبحث' وليس 'إيجاد'، كأنك تسعى إلى إثارة المطاردة بغض النظر عن النتيجة!"

أرمقه بنظرة جانبية قبل أن أقوم عن الكرسي وأضع يدي على كتفه وأقول له بنبرة ساخرة، "هل سأصبح فيلسوفًا مثلك لو ظللت هنا لوقت طويل؟ لا أريد أن أعرف؛ فأنا أسعى للعودة إلى الميدان."

أومأت لزميلي برأسي وغادرت مكتبه.

يشير المدير لي بالجلوس فأجلس على أريكة أكاد أغطس فيها. أشعر كأنني سكين حاد يخترق جسم شخص ممتلئ بالشحم. عندما أنتهي من الغطس يصبح المدير أعلى من مستوى نظري. أشعر أن وضع أرائك تمتص الضيف مقصود لجعله يشعر بالتقزم مقابل مدير القسم. على أي حال، أبدأ حديثي معه مباشرة، "لا يمكنني البقاء هنا أكثر. دعني أعمل على قضية الشاب المقتول. لقد شاهدت الڤيديو."

"لا يمكنني ذلك. لا يمكن ترقيتك مجددًا بهذه السرعة. بالإضافة إلى أنه يجب أن تكون شاكرًا لأنه لم يتم فصلك من العمل، وربما سجنك أيضًا."

"لقد تمت تبرئتي. لماذا أشعر بأنكم تعاملونني كأنني مذنب؟"

"لأن جميع من عمل معك يقول بأنك تستعمل قوة مفرطة أثناء التحقيق، ووفاة متهم يوم واحد فقط بعد تحقيقك معه، وضربك له، عرضك وعرضنا لنقد لاذع. رأيي أنك محظوظ بأن الأمور انتهت كما انتهت. غير أنني عينت سامي وآدم على القضية."

لا أستطيع منع نفسي من إطلاق ضحكة عند سماعي للإسمين اللذين قالهما المدير. أتساءل بصوت عال، "سامي وآدم؟"

"نعم. على الأقل فهما لا يفتعلان المشاكل. هما مجتمعان لم يتسببا بنصف المشاكل التي تسببت أنت بها".

"وهل هما مجتمعان استطاعا حل نصف ما حللته أنا من قضايا؟"

لا يتكلم المدير لعدة ثوان قبل أن يقترب ويتكئ على مكتبه الخشبي. يجيبني، "أنت تسبب وجع الرأس لنا. وأحيانًا درء المفاسد أولى من جلب المصالح."

"عملنا كله مع الفساد، ومن الطبيعي أن تتسخ أيدينا أحيانًا. يجب أن نكون أشداء بمواجهته."

"أوافقك الرأي، لكن تحت مظلة القانون، وأنت تخرج كثيرًا عن ظلها!"

"أريد أن أخرج عن ظل المكتب. سأموت من الملل هنا!"

يتأفف المدير من كلامي ويقوم عن كرسيه ويقول، "أنت هنا لتعمل. لو أردت الحصول على جرعة أدرينالين، جد لك رياضة خطرة. ولا تحاول السؤال عن معلومات حول الجريمة. سأخبرهم ألّا يخبروك أي شيء. أمّا الآن فعليّ المغادرة."

يتجه المدير نحو ماكنة صنع القهوة الموجودة في غرفة مكتبه ويقول، "لا يمكنني أن أعطيك جرعة أدرينالين، لكن يمكنني أعطاؤك جرعة كافيين."

يصب المدير كأسًا من القهوة، لكنه لا يرتشف منها. يتجه نحو باب مكتبه، وأنا لا أزال غاطسًا بالأريكة. ينظر المدير اتجاهي ويعطيني كأس القهوة الحار. أضع الكأس على طاولة صغيرة أمامي.

يسألني المدير، "لو عاد الزمن بك، وكنت تعلم أنه لن يتم محاكمتك بجريمة قتل، هل كنت ستضرب ذلك المتهم الذي مات بعد تحقيقك معه؟ لا أريد أن تجيبني، لكن فكر جيدًا بالإجابة."

يطرق المدير إطار الباب ويغادر، بينما لا أزال غاطسًا في الأريكة، وفي عقلي باحثًا عن إجابة عن سؤاله.

أخرج من مكتب المدير وكاسة القهوة بيدي، وعقلي يبحث عن طريقة لإيجاد معلومات حول الجريمة. أنوي المرور على مكتب سامي أو آدم علّ أحدهما أو كلاهما متواجد. لحسن حظي أجد آدم خارجًا من مكتبه يحمل مجلدًا أفترض أنه يحتوي على ملفات تتعلق بالجريمة.

"سمعت أنك وسامي تعملان على جريمة مقتل الشاب،" أقول له.

"هو كذلك. كيف ترى العمل المكتبي؟"

"لا أطيقه!" ولا أطيق الشماتة في سؤاله كذلك. أرغب بسكب القهوة على وجهه لأشويه، لكنها غير حارة كفاية لتسيح الجلد عن العظم.

أنظر نحو المجلد وأفكر بالعمل بناء على الرهان بأنه متعلق بالجريمة. أتظاهر بأني أعطس بقوة فأسكب القليل من القهوة على قميصه. أستغل البلبلة وأُسقط المجلد من يده فتتبعثر الملفات على الأرض. تتجه يد نحو جيبي لأخرج له منديلًا ينظف به بقعة القهوة، والأخرى نحو الملفات لمساعدته في جمعها. وخلال هذا أتظاهر بالتأسف لما حصل. أمّا بصري فهو مثبت على الملفات، وفعلًا أرى ملفًا عليه صورة الضحية والمعلومات الرئيسة عنه، ومن ضمنها مكان سكنه.

ينتشل مني الملفات ويضمها نحو الملفات الأخرى ويجمعها مجددًا في المجلد. أنظر نحو آثار بقعة القهوة على قميصه وأعتذر له عمّا حصل.

"لا تقلق!" يقول لي.

"أتمنى لك ولسامي التوفيق بالقضية. إن أردتما أية مساعدة، أنا موجود."

"لا تقلق. لا نحتاج لقتل المتهم،" يقول بتهكم.

أبحث عن شيء أقوله له انتقامًا عمّا قال، لكنني لا أجد. يحمل المجلد مبتعدًا. أنظر نحو مؤخرة رأسه وأتخيل أنني أجذبه من الشعرات التي لم تصلها رقعة الصلع بعد وأضعه تحت قدمي وأقحم حذائي داخل فمه. متأكد أنه سيتوقف عن التهكم حينها.

يفرض عليّ هبوط درجة الحرارة بعد الغروب ارتداء ملابس ثقيلة. أرتدي سترة دافئة مع قلنسوة وأقصد بيت الضحية.

أبحث باب البيت عن سيارة سامي أو آدم، بيد أنني لا أرى أية سيارة هناك.

أقترب من باب البيت، وأستغرب عدم وجود شريط يشير لوجود مسرح جريمة في المكان. على أي حال، أستطيع سماع تمتمة قادمة من داخل البيت فتوقعت أن أحد الجيران استطاع الدخول، أو ربما جاء سامي وآدم هنا بسيارة أوصلتهما ثم غادرت.

لأنه غير مخول لي المجيء إلى مسرح الجريمة، ارتأيت أن أجلب معي قناع نايلون يغطي وجهي خوفًا من وجود كاميرا مراقبة نصبها أحد المحققين داخل المسرح. أرفع القلنسوة على رأسي، وأخرج كذلك سكينًا صغيرًا من جرابي كتدبير احترازي أن يكون من بالداخل هو المجرم عاد ليمحي أي أثر قد يشير بأصابع الاتهام نحوه.

لا أزال أسمع صوت تمتمة، وهناك ضوء في الداخل. أقترب أكثر من الباب، فأستطيع تمييز التمتمة بأنها صوت الشاب. ربما يشغل شخص ما ڤيديو للضحية.

يتوقف صوته للحظات ثم يعود.

أقرر الدخول لرؤية ما الذي يحصل. لو كان المجرم قد عاد لمسح آثار جريمته ستكون فرصتي بأن ألقي القبض عليه. ولو كان أحد

المحققين بالجريمة فلن يكون قادرًا على تقديم شكوى بحقي؛ فمقدرتي على دخول مسرح الجريمة بهذه الطريقة سيكون مهينًا له، وبهذه الحالة سيفضل الصمت.

أدخل البيت ويصبح صوت الشاب أكثر وضوحًا. أضغط على مقبض السكين ثم أقف عند باب الغرفة التي يأتي الصوت منها. أستطيع سماع صوت الشاب يقول، "كان بالإمكان أن يكون هذا من أفضل الاختراعات للبشرية، إلّا أنه قد يساء استخدامه فيصبح كارثيًا. لا أستطيع إصلاحه ولا يبد..."

أطيل عنقي من عند إطار الباب لأرى الشاب يتحدث أمام هاتفه المحمول.

ليس تسجيلًا للشاب، بل الشاب بشحمه ولحمه.

"مستحيل!" أقول مستغربًا مما أرى!

لا أستطيع تفسير ما يجري، ولا يوجد لدي وقت لفعل ذلك؛ فالشاب انقض عليّ مهاجمًا، وببردة فعل ضربته على رقبته بالسكين.

فور سقوطه على الأرض، أتجه نحو الكاميرا وأضغط زر إيقاف التصوير.

أخلع القناع عن وجهي أحاول عبّ ما أستطيع من هواء.

ما الذي يحصل هنا؟ هل أنا مهووس بالقضية لدرجة أنني أحلم بها؟ هل أنا نائم؟

أضع يدي على صدري فأشعر به يدق كطبل، لكني أحاول التركيز. يتجه بصري نحو الشاب الميت أمامي. الموت تحت قدمي، لكنني أشعر بالحياة. الأمر كأن الحياة انتقلت من جسد الشاب إلى روحي. نكون أقرب للموت أثناء الحلم، والحياة التي أشعر بها الآن تخبرني أنني لا أحلم.

أمسك هاتف الشاب علّي أجد ما يساعدني على فهم ما يجري. أتنقل بين الصور والڤيديوهات إلى أن أجد مقطعًا يفسر لي، إلى حد ما، ما يحصل. أجد ڤيديو للشاب وهو يمسك بيده ما يشبه مصباحًا يدويًا.

أبحث بنظري عن الجهاز حول جثة الشاب فأجده. أحمله بيدي، لكنني لا أشعله قبل مشاهدة الڤيديو. يقول الشاب، "ظننت أنني أستطيع إصلاح مشاكل الجهاز ليكون أول جهاز سفر عبر الزمن، إلّا أنني لا أستطيع جعله يعمل بشكل مثالي... كل ما يفعله الآن هو إعادة اليوم، أو جزء منه، ليسجن المستخدم داخل دائرة زمنية تبدأ مع النهار، أو الاستيقاظ، أو غروب الشمس، وربما بوقت آخر؛ فلا مكان محدد يمكننا اعتباره نقطة البداية على الدائرة. تشغيل الجهاز بوجه الكادحين يعني أنهم سيظلون سجناء لمأساتهم. سيعيد الزمن نفسه لهم. سيكون سجنًا من نوع آخر حيث لا يكلف السجان أي قرش. لا أستطيع أن أكون طرفًا

بإيقاع هكذا مصير على أي شخص... لو وقع الجهاز بيدك بيوم من الأيام، هل لديك القدرة على حبس شخص داخل زمن ما؟"

أشعر كأنه يوجه السؤال لي وجهًا لوجه، وليس عبر تسجيل ڤيديو.

يطرح الشاب نقطة مثيرة بأن إعادة الزمن الكئيب لشخص ما يعني الحكم عليه بالكآبة لوقت أطول، لكنه لا يذكر أي شيء حول إعادة الزمن لشخص عاش يومًا مذهلًا. سيعني ذلك عيش اللحظة بلذتها مرة بعد مرة بعد مرة، كأنها أول مرة. أسأل نفسي: هل أرغب بعيش لحظة جميلة بحذافيرها مرة أخرى؟

أتذكر كذلك سؤال مديري الذي سألني إياه، أو لأكون دقيقًا، سيسألني إياه: هل كنت سأضرب المتهم الذي مات ساعات بعد تحقيقي معه؟

تتعدد الأسئلة، ويختلف سائل كل سؤال منهم، لكن الإجابة واحدة: في كل مرة.

الفرصة سانحة أمامي لأطبّق الإجابة، ولم أكن لأضيعها. أحمل الجهاز وأشعله بوجهي قبل أن أتصل بالشرطة من هاتف الطريدة.

******

ألعاب للكبار

لم يعد من يعمل معي يستغرب رشاقة أصابعي الغليظة أثناء تعطيل القنابل. كانت قنبلة من طراز قديم تنفجر عند انتهاء الوقت، ولم أجد لها مستقبِلًا لتفجيرها عن بعد. تم إلصاقها أسفل إحدى السيارات التي يركبها مديري أحيانًا، ولم يتبقَ سوى خمس دقائق على انفجارها.

أرى القنابل التي تعتمد على المؤقت فكرة غير ذكية تمامًا لاغتيال شخص ما؛ فهناك مراهنة كبيرة على وجود الهدف بمكان القنبلة وقت انفجارها. على أية حال، تمددت تحت السيارة وبدأت تعطيل القنبلة بمساعدة شاب يُدعى لورينزو، وربما لو رآنا أحد من بعيد لظن أنني ميكانيكي سيارات.

تلك كانت القنبلة السابعة التي أعطّلها خلال عملي لصالح الدون أليساندرو ريتزي، غير العشرات التي عطلتها قبل عملي لديه. وحتى لو كان طراز القنبلة قديمًا، إلّا أن تفكيك القنبلة، أي قنبلة، متعب للأعصاب. ورغم هذا العدد المرتفع من القنابل التي عطّلتها إلّا أنني أشعر بضغط نفسي كبير باقي اليوم؛ فحركة واحدة خاطئة يمكن أن تكون قاتلة بهذا العمل.

للدون ريتزي الكثير من الأعداء، ويتعرض لأكثر من محاولة اغتيال شهريًا، ووظيفتي الكشف عن القنابل، بحال وُجدت، وتعطيلها. وبعد تفقد السيارات خلال النهار تنتقل المسؤولية للحراس لمراقبتهم، والتأكد من عدم اقتراب أي شخص غير مُخوّل بذلك منهم. ويساعدني بهذا لورينزو، وهو الوحيد الذي أثق به من الأشخاص الذين يعملون للدون، وهو يثق بي كذلك؛ فأنا أنقذت حياته من قنبلة زرعَتها مجموعة إرهابية في سفينة وسط الأمواج العاتية. لحسن حظ ركّاب السفينة، ومنهم لورينزو، كنت على متنها، فعطّلتها قبل انفجارها بأقل من دقيقة. منذ تلك اللحظة أراد أن يتتلمذ على يدي كيفية تعطيل القنابل.

بالعودة إلى البرّ مجددًا، إلى القنبلة التي كانت مزروعة أسفل إحدى سيارات ريتزي بالتحديد، والتي بعدما انتهيت من تعطيلها اقترب مني نيكولا، الحارس الشخصي لريتزي، وقال لي بعدما نفث دخان سيجارته بوجهي، "أحسنت. هذه المرة لم تقتلك القنبلة."

"ربما ستقتلك سيجارتك هذه."

"لا تقلق. الوضع تحت السيطرة. ومن يعظني بهذا؟ شخص يعمل بتفكيك القنابل؟"

ربما كان معه حق بملاحظته تلك. على كل حال، انتهيت من عملي يومها، ولأنه كان مهلكًا، قررت أن أروّح عن نفسي قليلًا قبل توجهي إلى البيت؛ فأنا لا أحب أن تراني زوجتي قلقًا.

ذهبت لوحدي إلى صالة بولنغ صغيرة تبعد حوالي الكيلومتر عن قصر الدون ريتزي. لم يكن هناك إلّا عدة أشخاص بالصالة، ومعظمهم يعرفني، ويعرف أنني لا أحب الأحاديث المطولة عندما أذهب هناك لوحدي. بين حين وآخر أسمع تعليقات ممازحة ممن أعرف وجوههم، لكن غالبًا ليس أسمائهم، مثل، "كيف تستطيع التحكم بالكرة وأنت تمتلك أصابع غليظة كهذه!" و "يجب أن نصنع كرات ذات ثقوب أكبر خصيصًا لك."

أبتسمُ بوجوههم وأفكر بنفسي بأنهم على حق عندما أرى رؤوس أصابعي تحاول الإمساك بالكرة.

على كل حال، بعد عدة رميات ومشروب غازي، توجهت إلى البيت، وعلى الطريق قصدت محل بيع خضراوات لعجوز رقيقة.

"مرحبًا، أنجيليكا،" بدأتُ الحديث معها.

لدى أنجيليكا ابتسامة لطيفة تشعرك بالراحة حتى لو لم تكن تعرفها من قبل. ربما لذلك السبب لم أتوقف عن ارتياد محلها، وربما لشعور داخلي بالشفقة تجاهها لأنها وحيدة كليًا.

"مرحبًا، جيوڤاني! كيف حال أورورا؟"

"نحن بخير. شكرًا لك."

"كيف العمل؟ هل أنت متأكد بأنك لا تود تغييره؟"

كانت تتحدث وهي تحضّر احتياجاتي التي لم أعد بحاجة لإخبارها ما هي؛ فهي اعتادت على سماع الطلبات نفسها.

لم أرد على سؤالها. وضعَت الكيس أمامي، وأعطيتها النقود لتقول، "أتمنى أن يتغير مصدر هذا المال قريبًا."

فهمت قصدها بأنها غير راضية عن عملي لدى الدون ريتزي. ابتسمتُ بوجهها وحملتُ الكيس وعدت إلى سيارتي.

وضعت الكيس على المقعد الجانبي وأمسكت مقود السيارة لكنني لم أبدأ القيادة. تذكرت كل المرات التي أتفقد بها سيارات الدون، وسيارتي الخاصة، بحثًا عن قنابل، وتعطيلها عندما أجدها. لم أجد شيئًا أبدًا يستهدف سيارتي، إلّا أنه عند العمل لدى أحد زعماء عائلات الجريمة المنظمة في المدينة عليك توقع كل شيء.

يبدو أن لعب البولنج لم يجدِ نفعًا يومها؛ لأنني كنت لا أزال أشعر بالقلق. ولهذا شغلت سيارتي واتجهت إلى البيت، إلى الشخص الوحيد الذي يستطيع إزالة ما يؤرقني، حتى دون قول أي كلمة. مثل الشمس، صامتة، لكنها تزيل عتمة الليل وتبعث البهجة في روحك بمجرد رؤيتها.

على غير عادتها، كانت تقف بباب البيت تنتظرني. كان الباب مفتوحًا، وينبعث ضوء الصالة من الداخل، وذلك رسم صورة ظليّة لها أظهرت

حدود شعرها الذي يصل أسفل كتفيها بقليل، وفستان فضفاض خفيف بالكاد غطّى ركبتيها، بيد أن ملامحها لم تكن ظاهرة، ولم أتبينها إلّا عندما اقتربت منها ليظهر أنها بدت قلقة، أكثر من المعتاد، لأكون صريحًا.

"يبدو أنكِ قلقة!" بدأتُ الحديث حتى قبل أن أضع كيس الخضار من يدي.

اعتدت أن تحتضنني فور وصولي المنزل، إلّا أن ذلك لم يحصل حينها.

أجابت، "أنا كذلك، وأنت تعلم لماذا!"

لقد دار بيننا ذلك النقاش عدة مرات؛ فهي لم ترغب أن أستمر بالعمل كمفكك قنابل.

"يمكنك أن تفتتح صالة بولنج صغيرة. لطالما أخبرتني أنك تود فعل ذلك،" اقترحَت.

مررت من جانبها ووضعت الكيس على طاولة قبل أن ألتفت إليها، "لا يمكنني فعل ذلك. هذا هو عملي، وهو كل ما أعرف. لا يمكن أن أستقيل بسهولة!"

"حقًا؟ ولا من أجلي؟ ولا من أجلنا؟"

قالت ذلك بينما كانت تمرر يدها بلطف على بطنها من فوق فستانها المورد الخفيف.

نظرتُ إلى بطنها غير مصدق، ثم إلى وجهها، فرأيتها تبتسم، وهزّت رأسها "نعم."

أسرعت نحوها لأحضنها، ولكنني خفت أن يشكل جسدي الضخم خطرًا على الجنين فحاولت أن أكون لطيفًا قدر الإمكان. "بالتأكيد، حبيبتي، بالتأكيد. سأجد عملًا آخر!" قلت لها بينما كنت أحضنها. ابتعدت قليلًا لأرى وجهها، وملامح القلق قد ذهبت، ليصبح وجهها أكثر جمالًا. أزحت خصلتي شعر عن وجهها وقبّلت جبينها. "ستكونين أجمل أم!"

أحسست بيدها الصغيرة تمسك أصابع يدي اليسرى، وذلك جعلني لا أطيق انتظار أن تكون يد طفلي من تلامس يدي أيضًا.

كنت أتحيّن الفرصة المناسبة للحديث مع أليساندرو حول تقديم استقالتي قبيل انتهاء وقت دوامي، لكنه كان منهمكًا باللعب مع حفيده. لا زوجة لريتزي؛ فهي توفيت قبل سنوات عديدة، ولديه ابن واحد، ماتيو، وهو في نفس عمري تقريبًا، وهو بدوره غير متزوج؛ فزوجته تركته عندما اكتشفت أنه غير وفيّ لها.

أدرك ريتزي أنني أود الحديث معه على انفراد، أو على الأقل، دون وجود حفيده معه، فمن الصعب أن تجد ريتزي دون وجود حارسه نيكولا حوله. أخبر حفيده أن يختبئ حتى لا يجده الوحش. كانت لعبة لطيفة يلعبها مع حفيده كثيرًا، حيث يعد للعشرة ويجب على الحفيد أن

يختبئ. كان يفعلها عادة ليتسنى له الحديث على انفراد مع من يريد الحديث معه دون أن يُشعر حفيده بأن وجوده غير مرغوب فيه. هرع حفيده ليختبئ، فتقدم أليساندرو نحوي، فقلت له رغم وجود نيكولا في مرمى السمع، "أريد أن أقدم استقالتي."

نظر أليساندرو ناحية مكان اختباء حفيده قبل أن يدير وجهه نحوي مجددًا، "طفل على الطريق؟"

هززت رأسي بالإيجاب، ليرد، "كنت على وشك أن أترك مجال عملي عندما جاء ماتيو إلى العالم. لكن ها أنذا ذا. وهو كاد يفعل الشيء نفسه عندما جاء ابنه. لكن يبدو أن هذا العمل بدمنا. لا أعلم عنك، أود أن تبقى معنا. لكن هذا قرارك."

"شكرًا لك. لورينزو شاب جيد. لقد علمته كل ما أعرف."

"أنا متأكد من ذلك، لكن أفضّل أن أستقدم شخصًا آخر لديه خبرة أطول منه."

شكرته على قبوله كلامي قبل أن يقترب نيكولا مني ويسأل ساخرًا، "وماذا ستعمل بعد ذلك؟" ثم نفث الدخان اتجاهي، كعادته.

"سأدبّر نفسي. وقلت لك سابقًا أن التدخين مضر بالصحة، وهذه المرة أقولها وأنا لا أعمل بتعطيل القنابل."

"لن أفكر بنصيحتك."

وقبلما توجهي إلى باب قصر الدون، سمعت حفيده ينادي من وراء مخبئه، "أين أنت، يا جدي؟ هل أصبح الوحش أعمى؟" ثم ضحك ضحكة بريئة جعلتني أتأكد أكثر من صحة قراري بالاستقالة.

***

هناك محل قديم فارغ لا يبعد كثيرًا عن منزلي، فاستأجرته وبدأت عملية إصلاحه كي افتتح به صالة بولنج صغيرة. لقد كان الأمر ممتعًا عندما كنت أطلي الجدران بنفسي. عرضَت أورورا أن تساعدني، لكنني رفضت خوفًا أن تتعب نفسها.

في طريقي إلى البيت بعد انتهاء اليوم الأول من عملية الترميم مررت بأنجيليكا، وكانت لا تزال بعض بقع الدهان رطبة على ملابسي.

ابتسمَت عند رؤيتي وباركت لي العمل الجديد.

أجبت، "لكنني لم أبدأ بعد."

"لكنك بدأت تعرف القيمة الحقيقية للأشياء والأشخاص، وهذا يستحق المباركة."

"شكرًا لك."

"مستعدة أن أتخلى عن كل شيء مقابل امتلاك عائلة. ربما طفلًا أعتني به. لكن ها أنا ذا، أعتني بحبات التفاح بدلًا من ذلك."

أنهت تعليقها بضحكة لم أنخدع بها. حقيقة، شعرت بالأسى تجاهها.

شمرت كم قميصها وهي ترتب حبات التفاح ليرتفع عن رسغها فبان وشم ألحظه للمرة الأولى يُظهر جناحين: أحدهما أسود والآخر أبيض.

بحلقت بالوشم قبل أن تنتبه أنجيليكا لي وتنزل كمها مجددًا وتبتسم بوجهي.

يعرف جميع من يعمل أو عمل بالجريمة المنظمة ذلك الوشم، إن كان هو ما رأيته، لكنني أخبرت نفسي أنه ليس الوشم ذاته بل يشبهه، خاصة أن وشم جناحين شائع لمن اسمه يعني ملاك، وذلك كان وشمًا مناسبًا للاسم أنجيليكا.

"ألق السلام على أورورا،" طلبت أنجيليكا مني وعلى وجهها ابتسامة بدت متكلفة.

هززت رأسي وذهبت.

كادت أورورا تقبّلني فور دخولي البيت قبل أن تلحظ بقع الطلاء على ملابسي وجسدي، لتعلّق، "ربما بعد أن تستحم!"

"نعم، بالتأكيد."

نظرت أورورا في وجهي لثوان ثم قالت، "يبدو أنك متعب!"

هززت رأسي موافقًا واتجهت للحمام لأزيل آثار الطلاء عن جسدي، لكنني لم أستطع إزالة الشعور الذي أحسست به عندما رأيت الوشم على رسغ أنجيليكا.

***

بعد أيام من ترميم المبنى، ذهبت إلى محل تجهيز صالات بولنج لأجد صفقة مناسبة لشراء الأرضيات. وقبل أن أدخل المحل، رأيت ماتيو ريتزي، ابن أليساندرو، ترافقه حسناء خارجين من مطعم قريب من محل تجهيز صالات البولنج. تبادلنا التحيات وذهب كل منا في طريقه: أنا إلى داخل المحل وهما نحو سيارته على الرصيف الآخر.

لحظات بعد دخولي المحل، دوّى انفجار كبير في الشارع طرحني أرضًا.

أزحت عن نفسي الشظايا الزجاجية التي غطتني، ومسحت عن وجهي الغبار، وقمت عن أرضية المحل لأرى سيارة ماتيو تحولت إلى كتلة حديد متفحمة.

لم تتعرض سيارتي لأضرار كبيرة بفعل الانفجار، فقدت عائدًا إلى منزلي آملًا ألّا تكون أورورا سمعت الخبر.

رأيت أكثر من ظل يتحرك خلف ستائر نوافذ المنزل عندما اقتربت منه، فخمّنت أن مجموعة من صديقات زوجتي جئن ليباركن لها حملها.

طرقت الباب مرتين كي أنبهها لوصولي، لكنها لم ترد. ففتحت الباب لأجد أليساندرو ونيكولا وثلاثة شبان آخرين في صالة منزلي. تلفتّ يمينًا ويسارًا باحثًا عن أورورا، بيد أنني لم أجدها.

"لا تقلق بشأن زوجتك، جيوڤاني،" بدأ أليساندرو الحديث بطريقة آلية، وكأن الدم غادر جسده.

"أين هي؟"

"في القصر. لا تقلق بشأنها. هل سمعت ما حصل مع ماتيو؟"

"نعم. تعازيّ الحارة، دون. من فعلها؟ عائلة موريتي؟"

كان يتمشى نيكولا في الصالة وسيجارة بين شفتيه. بدا عليه أنه كان يرغب بقول شيء، لكنه ظل صامتًا.

رد أليساندرو، "شكرًا على تعازيك. نعم، إنهم هم. بأية حال، وصلني خبر أنك كنت موجودًا بمكان الانفجار حين حصوله."

لم ينتظر أليساندرو إجابة مني لتأكيد كلامه. أكمل، "ماذا كنت تفعل هناك؟"

"أبحث عن أرضية مناسبة لصالة بولنج. فأنا..."

قاطعني نيكولا، "نعلم ماذا تفعل!"

أجبت، "إذن أنتم تعلمون أن لا دخل لي باغتيال ماتيو! هل أورورا بخير؟"

"نعم،" أجابني أليساندرو قبل أن يردف، "أقصد أن أورورا بخير، لكن لسنا متأكدين من أنه ليس لك علاقة باغتيال ماتيو. فموته بعد أيام فقط من تقديم استقالتك مثير للريبة."

"حتى لو لم أقدم استقالتي، حدث الانفجار بمكان بعيد عن القصر. وأنا أتفحص القنابل بالقصر، وبحال ذهابه إلى مكان بعيد بسيارته سيكون من واجب حارسه أن يتأكد من سلامتها وقتها."

هزّ أليساندرو رأسه متفهمًا قبل أن يقول، "كلامك منطقي، لكنني لست مطمئنا من سبب كونك بالقرب من مكان الانفجار."

"لقد أخبرتك. كنت أبحث عن أرضية مناسبة لصالة..."

"لصالة البولنج التي ترممها. أعلم ذلك،" قاطعني أليساندرو ثم قال، "لكن كيف يمكنني أن أتأكد حقًا؟ فأنت تعلم ماذا يمكن أن أفعل بمن يمس شعرة من شعرات أحد أفراد العائلة. أجبني، كيف يمكنني أن أتأكد من براءتك؟"

لم أحر إجابة لسؤاله فظللت صامتًا.

نفث نيكولا الدخان من فمه وتابع بعينيه حركة الدخان الصاعد قبل أن يقترح على الدون ريتزي، "قد لا يستطيع إثبات برائته في هذه الحادثة بالذات رغم احتمالية أنه بريء. لكن لنتأكد، عليه إثبات ولاءه لك عن طريق القيام بفعل يثبت ذلك."

هزّ أليساندرو رأسه متفهمًا لاقتراح نيكولا قبل أن يدير وجهه اتجاهي، "لم ندفن ماتيو بعد، أو ما تبقى منه على كل حال،" توقف قليلًا عن حديثه ثم أكمل، "سأدفنه فقط عند مقتل أندريا موريتي بالطريقة التي قُتل بها ابني. العين بالعين. وأنت من ستفقأ تلك العين! هل تفهمني؟ فقط حينها سأدفن ماتيو، وستعود زوجتك لك."

أشار أليساندرو لرجاله بأن موعد المغادرة قد حان، وعندما وصل الباب أعلمني، "ستكون القنبلة التي ستستخدمها لقتل أندريا عند بابك صباح الغد."

لم أنم ليلتها، فبالإضافة إلى قلقي على أورورا، ظللت أفكّر بإمكانية قتلي لرجل آخر. لن يكون الأول؛ فخلال الحرب قتلت ثلاثة جنود من الأعداء. لكن هنا سيكون الأمر مختلفًا؛ فأنا أعرف وجهه وصوته. ولن أقتله في ميدان الحرب. بقيت طوال الليل أفكر كيف سأسرقه من عائلته حتى أنقذ عائلتي. كان عملي تعطيل القنابل لإنقاذ الأرواح، إلّا أنني وجدت نفسي بمكان لسرقتها.

***

في الصباح التالي، طُرق بابي مرتين، وعندما فتحته وجدت القنبلة التي سأستخدمها، وبجانبها ملف صغير يحتوي على معلومات حول رفاق وتحركات أندريا.

ليس من السهل الاقتراب من ابن زعيم أحد أكبر عائلات الجريمة المنظمة في المدينة، إلّا أن لكل شخص ثغرة يمكن أن نصل من خلالها إليه، ووجدت واحدة عند أندريا: إدمان المقامرة.

هناك بعض الأقاويل أنه يراهن على فوز الفريق الخصم للفريق الذي يشجعه والده، وهذا يغضب الوالد جدًا؛ ولذلك كانت مراهنات أندريا تتم بشكل سري نسبيًا، أي أنه لا يرافقه أحد إلى مكتب المراهنات.

بالنسبة لي، كان رهانًا قد يكون خاسرًا أن أراقبه متجهًا إلى أو خارجًا من أحد مكاتب المراهنات، ساعات بعد اغتيال عدو لدود، لكن لم يكن لديّ سوى تأمل أن إدمانه كان أقوى من حذره.

بعد التدقيق بالمعلومات حول تحركاته، توقعت أن يضع رهانًا على فريقه يومها، ففي اليوم التالي كان لديه مباراة، ولم أجد مكانًا أنسب من ذلك له سوى مكتب مراهنات يقع بالقرب من المنطقة التي يأتي منها ذلك الفريق، وهي منطقة لا تقربها عائلة موريتي عادة.

بقيت في سيارتي خارج مكتب المراهنات أنتظر قدومه. وكان الأمر صعبًا نسبيًا؛ فأنا توقفت بعيدًا كي لا أثير الريبة، وبسبب الأمطار التي كانت تهطل بشكل متقطع يومها كان من الصعب تمييز الوجوه. لقد كان يومًا ماطرًا بين أيام ربيعية ذات جو معتدل، إلّا أنه لم يكن لدي امتياز الانتظار ليوم آخر.

على كل حال، بعد قرابة ثلاث ساعات رأيته يتجه نحو المكتب، فأسرعت اتجاه سيارته وزرعت القنبلة، ووقفت مبتعدًا مترين أو ثلاثة عنها، ولا يفصلنا سوى بركة ماء تجمعت بسبب الأمطار، إلى أن خرج أندريا من المكتب.

عندما اقترب من السيارة أستوقفته، "لا تقد السيارة، سيد أندريا!"

نظر أندريا في وجهي مستغربًا مما قلته له، لكنني أشرت له بوجهي نحو بركة الماء فنظر إليها. قفز خطوة إلى الخلف عندما لاحظ انعكاس القنبلة المزروعة أسفل سيارته، فطمأنته بسرعة، "لو كنت أريد قتلك لما أخبرتك بألّا تركب. سأخبرك ماذا سيحصل الآن ولن تناقشني."

هزّ أندريا رأسه موافقًا، وقد لاحظت بعض قطرات العرق على جبينه رغم برودة الطقس يومها.

أكملت، "لدي جثة حيوان في سيارتي، وسأضعها في سيارتك ثم أفجرها. أمّا أنت ستتوارى عن الأنظار لفترة. وسيعتقد أليساندرو ريتزي أنك قُتلت. هل فهمت؟"

حرّك رأسه إشارة لاستيعابه الخطة ثم ابتعد عن سيارته.

كنت أدرك أن هذا قد يؤدي إلى حرب بين العائلتين، فخفت أن تكون أورورا بمرمى النيران، فقدت مسرعًا إلى قصر الدون ريتزي.

وصلت بعد أكثر من ساعة بقليل وتنفست الصعداء عندما رأيت الوضع هادئًا هناك.

كان المعظم داخل القصر، ربما للحالة الجوية السائدة حينها. لم يكن الحارس الذي يمضي وقته داخل كشك الحراسة موجودًا يومها. أسرعت إلى ردهة القصر لأتفاجأ بأورورا مربوطة على كرسي وهي لا تزال بفستانها المورد الخفيف.

"ماذا تفعل؟" سألت أليساندرو غاضبًا، وقد كان محاطًا بعدد من رجاله، ومن خلفهم عدة تماثيل حجرية بمحاذاة جدران القصر، ومن فوق الجميع ثريا ضخمة.

كانت الإجابة ضربة قوية من سلاح أحد رجاله على صدغي الأيمن أفقدتني وعيي.

لم أستيقظ إلّا بعد حلول الظلام، ولقد كنا بكشك الحراسة، أنا مربوط على كرسي، وأورورا مربوطة على آخر، ترتجف بردًا.

"هل أنت بخير؟" خرج سؤالها من بين أسنانها التي كانت تصطك بسبب البرد.

"ماذا حصل؟"

ما أن أكملت سؤالي إذ بنيكولا يدخل الكشك ليراني مستيقظًا قبل أن يستدير مجددًا ويخرج.

ثوان بعدها كان أليساندرو داخل الكشك. كان وجهه محمرًا وفتحتا أنفه تتحركان كخياشيم سمكة خرجت من الماء. اقترب مني ولكمني قبل أن يصيح بوجهي، "أيها الوغد!" ثم أكمل، "أتعتقد أنني غبي؟ ولديك الجرأة لتأتي إلى قصري! لو كنت مكانك لهربت إلى أبعد مكان ممكن بعيدًا عن أنظار الجميع."

كان واضحًا أنه عرف أنني لم أقتل أندريا، لكن لم أعرف كيف.

وكأن نيكولا قرأ أفكاري فأوضح بينما كان يمرر أصابعه في شعره، "لدينا متعاونين في المطارات، ووكالات السفر كذلك. وعندما حجز أندريا تذكرة سفر وصلنا الخبر بسرعة."

لا أصدق أنني كنت بتلك السذاجة ولم أخبر أندريا بألّا يفعل ذلك.

اقترب أليساندرو مني مجددًا ولكمني مرة أخرى، وصاح، "أتريد أن تخدعني أيها الوغد؟ أتعتقد أنني غبي وأن تنطلي عليّ هكذا خدعة؟ أخبرتك سابقًا أنني لا أسامح من يمس شعرة من أحد أفراد العائلة. والآن، لن أسامح من لا يأخذ كلامي على محمل الجد."

توجه نحو أورورا وركلها على بطنها بكل ما أوتي من قوة، وبسبب إنهاكها كان صراخها مكتومًا. حاولت القيام عن الكرسي لكنني لم أستطع، فبدأت أصرخ به فجاء نيكولا ولكمني على حنجرتي. بصقت

بعض قطرات الدماء، إلّا أن تركيزي كان اتجاه أورورا التي فقدت وعيها ومال وجهها نحو اليسار، يغطيه شعرها الذي كان يتحرك مع أنفاسها الضعيفة. لو لم تكن مربوطة لوقعت أرضًا. ورغم فقدانها للوعي إلّا أن أليساندرو ركلها مرة أخرى على بطنها.

حاولت مناداتها إلّا أن صوتي لم يخرج، وخرج بدلًا منه سعال يصاحبه الدماء، لكن عندما رأيت خط دم ينزل من عند داخل فخذها إلى ساقها حتى وصل الأرض، صرخت ملء فمي فخرج الصوت ممتزجًا بالدم. وصل صوتي أنحاء القصر كله، بيد أن جسدي كان لا يزال مكبلًا على الكرسي. ثوانٍ بعدها لاحظت أن الشعر الذي غطّى وجه أورورا توقف عن الحركة.

لكل شخص منا شمسه، وكانت أورورا شمسي، وعندما غابت أقسمت بأنني لن أكون الوحيد في الظلام. لطالما ظننت أن غياب الشمس سيتركني بالبرد، إلّا أن غياب شمسي بتلك الطريقة تركني بحريق مستعر.

عملت عدة سنوات بتعطيل القنابل، لكن حينها شعرت أنني أنا كنت قنبلة على وشك الانفجار، وكان عليّ تعطيلها، أو على الأقل تأخير انفجارها لحين يكون فيه ضرره أكبر على قاتل زوجتي وجنينها.

بعد دقيقة جاء لورينزو وحارس آخر، وبدا على لورينزو الأسف عندما رأى أورورا.

"خذها إلى الخارج،" طلب لورينزو من الحارس الآخر.

اقترب لورينزو مني وانحنى وقال لي ووجهه نحو الأرض، "آسف حقًا!" ثم نظر في أنحاء الغرفة وقام، وقال لي بعدما تأكد أن الحارس الآخر أخرج أورورا، ولم يعد بوسعه سماعه، "سأعود بعد خمس دقائق."

عندما عاد بصحبة الحارس ذاته، كان معه قطعة قماش كبيرة وعلبة كحول وقطعة صابون واقترب مني وقال بصوت سمعه الحارس، "هذه لتطهير جروحك. لا نريد أن تموت هكذا." ووضعهم بين يدي المربوطتين، غير أنه كان معهما شفرة حادة وولاعة. نظر لورينزو بعيني ليتأكد أنني رأيت كل ما جلب لي. هززت رأسي له إيجابًا فغطاهم بقطعة القماش، ثم وقف وأخبرني أنه سيعود بعد قليل برفقة الحارس.

معظم ما يعلمه لورينزو عن القنابل أنا علمته إياه، وعندما كان ينظر في أنحاء الكشك كان يتفحص إن كان بالإمكان تفجير مكان فيه يتسع لي لكي أهرب منه، وعندما أدرك أن ذلك ممكن جاء لي بأغراض تتيح لي فرصة صنع قنبلة كفيلة بتحقيق ذلك الهدف. لزمني الأمر عدة دقائق كي أفك وثاقي، ولكن بعدها جهزت القنبلة وفجرت ثقبًا خلال دقيقتين أو ثلاث فقط.

كنت محظوظًا في إيجادي شاحنة جمع نفايات صغيرة تسير أمام القصر عندما خرجت. رميت هاتفي بعيدًا ثم قفزت فيها مبتعدًا.

كنت أعلم استحالة عودتي إلى منزلي، أو إلى صالة البولنج التي كنت أرممها. والذهاب إلى فندق بتلك الحالة كان سيجلب انتباه الشرطة بالتأكيد، ذلك على فرض أنه لم يكن هناك متعاونين في الفنادق مع عائلة ريتزي أصلًا. فكان خياري الأنسب الذهاب إلى أنجيليكا.

تخيلت ردة فعل مغايرة لتلك التي أظهرَتها؛ فهي أشارت لي بالدخول فقط وكأنها رأت موظف توصيل البيتزا على الباب، وليس شخصًا تعرفه عليه آثار لكمات وملطخ بالدماء.

"ستخبرني بكل شيء بعدما تأخذ حمامًا دافئًا،" قالت لي بنبرة لطيفة، لكن حازمة.

لم تتلفظ أنجيليكا بأي حرف إلى أن انتهيت من حكاية قصتي لها، بمساعدة مشروب ساخن أعدته لي.

هزّت رأسها عند انتهائي من القصة وقالت، "متأسفة جدًا. ماذا ستفعل الآن؟"

"سيدفع الثمن!"

"كيف؟"

"سأجد طريقة."

"دعني أساعدك."

"لقد ساعدتني كفاية، وأشكرك على ذلك."

"يمكنني فعل أكثر من هذا بكثير."

"كيف؟"

رفعَت كم زيها إلى أعلى من رسغها ومدت يدها لي لأرى الوشم بوضوح. لقد كان ما ظننت أنني رأيته قبل أسابيع صحيحًا: جناح أسود يقابله جناح أبيض. وشم يعود لقتلة محترفين مستقلين. وعُرف عنهم أنهم لا يقتلون سوى أفراد العصابات الذين يرون أنهم يضرّون المجتمع. على كل حال، ترك هؤلاء القتلة العمل قبل سنوات.

"اتبعني!" أمرتني بينما كانت تقوم عن كرسيها برشاقة غير معهودة لمن هم في عمرها.

لا يمكنني تخيل كيف لشخص أن ينام في غرفة كغرفة نومها؛ ففي كل زاوية وخزانة يوجد أسلحة.

"لكنكم تركتم العمل!" تساءلْت.

لترد أنجيليكا، "لكن هناك من يعمل إلى الآن تحت مسمى آخر، ونحن نساعدهم أحيانًا." سكتت لهنيهة قبل أن تكمل، "إلّا أنني أود أن أقضي وقتي بشيء آخر. لسوء حظي لن تقبل الشؤون الاجتماعية طلبي بتبني أحد الأيتام."

"لا أصدق هذا! أنت حقًا ملاك. ملاك رحمة لقولك هذا، ولكن نظرًا لهذه الأسلحة، ولماضيك، ملاك موت."

"وهذا يفسر الوشم إلى حد ما، جيوڤاني. جانب مميت والآخر رحيم. وأحيانًا يلتقيان." وربتت على كتفي قبل أن تعود إلى كرسيها.

***

لم يتوقف عون أنجيليكا عند ذلك الحد؛ فهاتفها كان وسيلتي للتواصل مع لورينزو. طلبت منها أن تتصل به، وعندما كان وحيدًا تحدث معي حول دفنه لزوجتي في الحديقة الخلفية لبيت عائلته.

"إنهم خارج البلاد، ولا أحد بالمنزل. يمكنك الذهاب لرؤيتها إن استطعت،" أخبرني.

ذهبت إلى المكان بواسطة سيارة أجرة قبيل منتصف الليل، وطلبت من السائق أن ينزلني على بعد قرابة مئة متر من البيت؛ فكان من الأفضل أخذ الحيطة والحذر قدر استطاعتي. راقبت المكان لدقائق، وفقط عندما تأكدت من سلامة المحيط اتجهت إلى حديقة البيت الخلفية.

حجبت غيمة كبيرة القمر فكانت ظلال الأشياء منطفئة على الأرض. تحرك جسدي ببطء كشبح في العتمة، وعندما رأيت مكان دفنها تثاقلت خطواتي. كان التراب مقلوبًا عند حافة الحديقة، حيث كانت تنمو

بعض الأزهار التي تركها لورينزو دون المساس بها. لكن زهرتي أنا كانت تحت التراب، وكنت متيقنًا أن من قطفها سيلقى جزاءه.

وددت لو أنني كنت أرى كابوسًا، بيد أن الواقع كان غير ذلك؛ فأنا لم أكن أرى واحدًا بل أعيشه، وكنت أخطط أن أصبح واحدًا للمسؤولين عما حصل لزوجتي وطفلي.

جثوت عند مدفنها ودعوت الرب أن يغفر خطاياها. ربما كانت خطيئة أن تقبل بواحد مثلي! لكن بالتأكيد الوقت الذي أمضيته معها كانت مباركة من الرب بالنسبة لي، فشكرته على ذلك، "شكرًا يا رب على عطاياك الكثيرة، حتى لو أردنا أن تدوم أكثر، لكن مشيئتك تجري على هذه الأرض ولن أعترض عليها. أنت تعطي وأنت تأخذ، وأدعوك أن تكون أورورا بمكان أفضل الآن،" توقفت قليلًا عن الصلاة ونظرت إلى التراب المقلوب وتساءلت إن كنت صادقًا حقًا؛ فأنا كنت مستعدًا لفعل أي شيء كي تعود إلى الحياة.

الحياة والموت! ماذا يفصل بينهما؟ فها هو التراب الذي هو أصل خلق الإنسان، كان حينها يحتضن الموت. يراهما البعض كضدين على طرفي نقيض، لكنني أراهما متلاصقين، لكن يدير كل منهما وجهه عكس الآخر، كوجهَي عملة واحدة. أكملت، "أنت تعلم ما أقول وما أفكر به، أنت يا من تريد نشر العدالة في الأرض، وأنا أداة لديك لفعل ذلك. ولتحقيقها يجب أن نقضي على الظلم الذي تكره. سأستمع لك ولن

أغضب، لن أنتقم لشخصي؛ فالانتقام لزوجتي ليس غايتي بل بدايتها. فغايتي ستكون نشر هيبتك على الظالمين. أعنّي على ذلك يا رب!"

وعندما قمت وجدت أنني كنت ممسكًا خاتم الزواج طوال الوقت.

***

هناك تقليد عند عائلات الجريمة المنظمة وهو أن الجزاء من جنس العمل، لكن أقوى. وكنت أراهن على ذلك التقليد؛ ففكرتي كانت افتعال مشكلة بين ريتزي وموريتي.

كانت خطتي إطلاق النار على قصر موريتي، ثم انتظار رجاله لرد الفعل ذاته ضد ريتزي. وفي الأثناء نفسها، سيفجر لورينزو كاميرات المراقبة بشكل عشوائي ليظن رجال ريتزي أن طلقات رصاص أصابتها.

بالنسبة للقصر، سيطلق رجال موريتي النار عليه من جهتين فقط، لأنهم سيكونون بسياراتهم، بداية الاشتباك على الأقل، وهذا سيترك جهتين محميتين، وسأدخل القصر من إحداهما حيث سيكون حرس ريتزي منشغلين بمبادلة النار مع رجال موريتي. وكنت أراهن على وجود أليساندرو بخزنته الكبيرة الموجودة في غرفته في الطابق الثاني.

***

لم أنتظر أكثر من ساعة حتى قدوم رجال موريتي وإطلاق النار على قصر ريتزي. اخترت أن أذهب دون حمل الكثير من الأسلحة. سلاح سريع ومسدسين، وبعض القنابل الصغيرة، وسكين.

بدأ لورينزو بتفجير كاميرات المراقبة تواليًا من مكان انتظاره على بعد عشرات الأمتار من القصر.

وعندما تأكدت أن الكاميرات التي تغطي الجهة التي سأدخل القصر منها قد تفجرت، ترجلت من السيارة، والتي كانت سيارة أورورا.

بقيت منحنيًا لتجنب الأنظار. أمّا بالنسبة لطلقات الرصاص فكانت أغلبها مرتفعة نسبيًا؛ فهناك سور أمام القصر، وكان يجب على الرصاص أن يمر من فوقه ليصيب القصر.

رأيت بعض الحرس يتساقطون، ولم يكن عددهم كبيرًا. بحثت بنظري سريعًا عن نيكولا، لكنني لم أجده.

قبل وصولي إلى باب ردهة القصر، رأيت حارسًا يدير ظهره لي ويطلق الرصاص باتجاه الشارع، ولم أرد أن أطلق عليه الرصاص من الخلف كي لا ألفت انتباه بقية الحرس نحوي. اقتربت منه بحذر وذبحت رقبته بحركة سريعة وقاضية. تأكدت من عدم انتباه بقية الحرس لقدومي عندما أمسكت الحارس كي لا ترتطم جثته بالأرض.

كانت فكرتي الأولية أن أدخل القصر وأنجز المهمة، ومن بعدها إعطاء إشارة للورينزو لتفجير كشك الحراسة لتشتيت انتباه الحرس، ثم

الهرب من نفس الطريق التي دخلت بها. وكنت قد جلبت قنابل دخان لتغطية خروجي.

وجدت حارسًا أمامي أول دخولي الباب، فأطلقت عليه النار من مسدس كاتم للصوت فسقط مقتولًا.

اخترقت طلقات رجال موريتي نوافذ القصر والثريا العملاقة التي كانت تتوسط سقف الردهة، فتناثرت شظايا الزجاج في كل مكان فاحتميت بجانب أحد التماثيل الحجرية.

نظرت نحو الدرج المفضي إلى الطابق الثاني فلم أر أي حارس آخر. اقتربت من تمثال آخر لأحتمي به من الشظايا الساقطة، لكنني تفاجأت بحارس نحيل خرج من خلفه وأطلق النار من مسدسه وخدش فخذي. وقبل أن يطلق رصاصة ثانية كنت قد أطلقت النار في رأسه فسقط إلى الخلف فارتطم بالتمثال الذي أعاده إليّ. أمسكت به بيدي الاثنتين لأتفاجأ بعدد من الرصاصات تُزرع بجسد الجثة التي حمتني. لمحت من فوق كتفها الرجل الذي أطلق عليّ النار يقترب نحو منتصف الردهة مع اتخاذه زاوية رؤية أفضل تخوّله إصابتي بشكل مباشر، مستغلًا نحل الجثة التي كنت أحتمي بها، والتي لم تغَطِّ الكثير من جسدي الضخم. وبالفعل فعل ذلك وأطلق ثلاث رصاصات أصابت الجهة اليمنى من صدري أطاحتني أرضًا مُسقطًا السلاح من يدي. كنت أرتدي درعًا واقيًا للرصاص، لكن قوة الطلقات كادت تفقدني الوعي.

"جيوڤاني، لم ترق لي أبدًا!" قال الحارس بينما كان يمشي مقتربًا مني، وهو يبدل مخزن رصاص سلاحه. أكمل صارخًا ليتجاوز صوته أزيز الرصاص الذي كان يتطاير في سقف ردهة القصر، "ألا ترى أننا مشغولون بأمور أهم منك أيها النكرة؟"

فور أن انتهى من كلامه، صوّب سلاحه نحو رأسي، لكن الثريا العملاقة انفلتت من السقف بسبب كثافة الرصاص الذي تعرضت له فوقعت عليه.

"شكرًا أيها الإله على تدخلك!" قلت قبل أن أحمل السلاح عن الأرض وأتجه إلى الدرج.

شعرت بضيق بصدري، وبدأت فخذي بإيلامي فكنت أعرج أثناء اتجاهي نحو مدخل غرفة أليساندرو.

وقبل وصولي بمترين، ظهر نيكولا من خلف الباب وأطلق عليّ الرصاص من مسدسه الصغير فأصاب كتفي الأيمن ليسقط سلاحي، وأصاب كذلك صدري، إلّا أن الدرع الواقي حماني. لم أسقط على الأرض، لكن دمي سال من كتفي وشعرت بالرصاصة ساخنة داخله عندما تفحصتها.

كان هناك مسدس ثان على حزامي، ولكنني كنت أدرك أنني لن أستطيع إشهاره وإطلاق النار بسرعة. وكان هو يعرف ذلك أيضًا.

كان بإمكان نيكولا إطلاق الرصاص عليّ مجددًا، لكنه فضّل سحب السيجارة التي كانت في فمه ونفث الدخان اتجاهي أولًا قبل أن يقول، "لم أكن أتوقع بأنك ستموت بعيار ناري. لا تفهمني بشكل خاطئ؛ فأنا أرغب بقتلك بأي طريقة كانت، لكن كنت أتوقع أنك ستموت بانفجار قنبلة. مضحك أنك كنت تحذرني من أضرار التدخين. لسوء حظك لم يكن هناك من يحذرك مني؛ فحياتك الآن تحت سيطرتي." أرجع نيكولا السيجارة بين شفتيه، ولكنه لم يطلق النار بل أخرج قارورة مشروب كحولي معدنية من جيبه وفتحها وقال ساخرًا ولا تزال أسنانه تمسك السيجارة، "نخب موتك!"

"ربما أنت محق. ربما سأموت بانفجار قنبلة."

وبينما كنت أتحسس كتفي الأيمن، سحبت قنبلة صغيرة كنت قد علقتها بشكل خفي خلف الدرع الواقي للرصاص من الخلف، ورميتها أمامه. قفز نيكولا إلى الخلف، وفعلت مثله. لم يكن انفجار القنبلة قويًا جدًا، لكنه كان كافيًا لدفعنا أكثر إلى الخلف.

استرقت نظرة سريعة نحو نيكولا فوجدت مسدسه وعلبة الكحول على الأرض بجانبه. لكن بشكل ما، كانت لا تزال السيجارة بين شفتيه.

قمت عن الأرض وأخرجت مسدسي بيساري وأطلقت النار على ركبتيه. اقتربت من علبة الكحول وحملتها ونصحته، "شرب الكحول،

مثل التدخين، مضر بالصحة!" وسكبت بعض ما في العلبة على وجهه فاشتعل ببطء، ثم سكبت الباقي على صدره لتمتد النيران إلى هناك أيضًا.

وعلى نغمة صراخ نيكولا دخلت غرفة أليساندرو.

وقفت أمام الخزنة الكبيرة وكانت خطتي أن أفجّر قفلها ثم أرمي قنبلة غاز داخلها، لكنني غيرت رأيي عندما سمعت صوت حفيده بالداخل.

كنت أستمع إلى صوت إطلاق الرصاص المتناقص في باحة القصر. وكنت مدركًا أنني لا أمتلك الكثير من الوقت، خصوصًا وأن إصابة كتفي كانت تستنزف دمي.

لكن ها هو أليساندرو يختبئ في خزنته مع حفيده، وذلك شلّ كل أفكاري.

من المؤكد أنه كان سيخرج أولًا على آخر، إلّا أن قطرات الدماء الساقطة من كتفي على البلاط كانت تدق كعقارب الساعة تنذرني باقتراب انتهاء الوقت الذي أملكه.

كانت أصوات الطلقات متفرقة كذلك.

عدت إلى جثة نيكولا وفتشت عن هاتفه متمنيًا أنه لم يتعطل. ولحسن حظي كان بخير. اتصلت بأليساندرو وفي اللحظة التي أجاب فيها أخبرته بنبرة قلدت فيها نيكولا، "الوضع تحت السيطرة!"

انتظرته بجانب باب الخزنة. خرج أولًا يحمي حفيده بيده. لم أرد قتل أليساندرو أمام الطفل. ضربت الجد بمؤخرة المسدس على صدغه فسقط أرضًا. قلت للطفل مع إبقاء أليساندرو تحت نظري، "هذه لعبة للكبار. فلنلعب لعبة أنا وأنت. لكن هذه المرة بالعكس. أنت أغمض عينيك ولا تفتحهما إلّا حينما أقول لك. وحينها ستكون أنت الوحش الذي ستبحث عني. موافق؟"

هزّ الطفل رأسه مبتهجًا وأغمض عينيه.

اتجهت مجددًا نحو الجد الذي كان يحاول النهوض.

أصبحت الرؤية أكثر صعوبة، ولم أعد أشعر بيدي اليمنى.

كوّرت قبضتي اليسرى ولكمته على أنفه وصدغه مرارًا حتى كاد خاتم زواجي يلتصق بلحم إصبعي.

امتلأت قبضتي بالدماء، والغرفة بصراخ أليساندرو الذي حاول استجداء حفيده لكنني قاطعت صراخه، موجهًا كلامي للطفل، "لو فتحت عينيك أيها الطفل ستخسر اللعبة!"

نظر أليساندرو نحوي يحاول التفوه بشيء ما بيد أن الكلام لم يخرج إلى أبعد من حنجرته.

"هل أفتح عيني الآن؟" سأل الطفل.

"لا. ليس بعد. سأخبرك عندما تنتهي لعبتي مع جدك."

وربما بسبب ذكر اللعبة تذكرت البولنج، وكم أحببت اللحظات التي قضيتها بترميم الصالة آملًا بمستقبل هادئ مع زوجتي وطفلي. فقلت لأليساندرو، "ربما حان وقت لعبة بولنج أخرى. لكن من نوع آخر!"

نظر إليّ متساءلًا قبل أن أغرز السبابة والوسطى بعينيه والإبهام بفمه، وبدأت بالضغط حتى أحسست ما في جمجمته يتفتت بين أصابعي، ولم أتوقف حتى انقطعت أنفاسه.

"أنت محظوظ أنني فعلت ذلك باليد الضعيفة!" قلت لجثته وأنا أخلصّ أصابعي من جمجمته.

لم يعد هناك أي صوت إطلاق رصاص في الخارج، ولم أسمع أي أثر لحرس ريتزي. اتصلت بلورينزو وطلبت منه تفجير الكشك. وعندما سمعت صوت الانفجار، حملت الطفل بعد أن أخبرته بأن يبقي عينيه مغلقتين.

أمتار قبل خروجي من الباب، رأيت أن النيران كانت لا تزال مشتعلة في الخارج، والدخان يملأ باب القصر. كنت أحمل الطفل بيدي الشمال، والمسدس باليمين رغم عدم إحساسي بها. وقبل أن أصل الباب، ظهر حارس يعرج، لكنه يحمل سلاحًا بيده، وأشهره نحوي. حاولت أن أرفع المسدس بيميني، لكنني لم أستطع أن أصوّبه بدقة؛ لضعف يدي

وتشوش رؤيتي كذلك. بعد أقل من ثانية سمعت صوتًا ظننته انفجارًا، لكنه لم يكن كذلك.

سقط الحارس على باب ردهة القصر ثوانٍ قبل ظهور جسم نحيل وسط الدخان وألسنة اللهب يحمل سلاحًا.

اقترب الجسم النحيل مني وتكلم، ولم أميزه إلّا من صوته، "دائمًا تأكد من سلامة المخرج قبل الانسحاب!"

"أنجيليكا!"

"نعم. أحسست أنك بحاجة لمساعدتي."

"شكرًا لك!"

"شكرًا لك كذلك؛ فمن خلال اهتمامي لسلامتك أشعر وكأنني أم! إنها المرة الأولى التي أهتم حقًا لسلامة شخص أعتبره مقربًا مني."

"لكنها لن تكون الأخيرة."

"هل أفتح عيني الآن؟" سأل الطفل.

"ليس بعد." أجبته، ثم أكملت محدثًا أنجيليكا، "هل تودين أن تشعري بأنك جدة؟"

ابتسمَت قبل أن تقول، "سألتقيك في منزلي. سأغطي عليكما الآن. هيا اخرجا!"

استدارت وأطلقت النار على شيء لم أميزه بسبب الدخان، لكنني سمعت أنينًا. أطلقَت النار مجددًا على مصدر الصوت فكتمته.

شددت يدي حول الطفل وذهبت للقاء لورينزو خارج القصر.

***

اقترح لورينزو الذهاب إلى صديق له لتفقد إصاباتي، لكنني أمرته بالقيادة إلى منزل أنجيليكا.

ورغم قيادته السريعة، إلّا أننا وجدناها في انتظارنا في منزلها. كانت بملابس المنزل كذلك، ورائحة طعام يُطهى قادمة من المطبخ. وكان هناك حقيبة إسعافات أوليّة جاهزة.

لم ينتظر لورينزو الانتهاء من تحضير الطعام رغم طلب أنجيليكا ذلك منه. وبعدما ذهب، طلبَت مني أن أكشف عن جروحي لتطهيرها وتضميدها، "سيكون ضمادًا مؤقتًا. صديقتي طبيبة وستأتي دون طرح أسئلة."

شكرتها على كل ما فعلته من أجلي. وبداخلي كنت أشكر الرب كذلك على نجاتنا.

نظرَت نحو الطفل وطمأنته، "سيكون كل شيء بخير!" ثم نظرَت لي وقالت، "هل تذكر عندما أخبرتك أنني أرغب بوجود شخص أعتني به، وسأتخلى عن كل ذلك؟" وأشارت بيدها نحو غرفة نومها.

"هل تقصدين..." بدأتُ الكلام، لكن عندما انتبهت لوجود الطفل فضّلت عدم قول الكلمة علانية، "هل تقصدين ألعاب الكبار؟"

ضحِكت أنجيليكا وهزّت رأسها، "نعم، ألعاب الكبار."

"ربما ليست فكرة جيدة كليًا التخلي عنها."

"لن أتخلى عنها مجانًا، إن كنت تعتقد ذلك!"

"لم يكن هذا الذي ببالي."

"وبمَ كنت تفكر؟"

"كنت أفكر أنه ربما... سيتوجب عليّ اللعب مجددًا قريبًا!"

******

دخان

"هذه الدنيا تافهة مثل هذا الدخان،" بدأ رامي، زميلي في العمل، بعدما نفث دخانًا من أرجيلته. أكمل، "رغم ذلك، يتقاتل الناس عليها."

نعمل في مزرعة كبيرة تحوي العديد من الأشجار والبيوت البلاستيكية، وتبعد عدة كيلومترات عن أقرب بلدة مأهولة. يعود العمال إلى منازلهم عند الانتهاء من العمل كل يوم، غير أنني ورامي ننام في المزرعة نحرسها.

ننام في غرفة من باطون تقع في الطابق الثاني لبناء قيد الإنشاء، حيث الأول عبارة عن دكاكين فارغة. أخبرني رامي أنه قام بتركيب باب خشبي للغرفة خلال الأيام الأولى لعمله هنا، وقد بدأ قبل شهور عديدة. وقام كذلك بمد وصلة كهربائية لإيصال التيار للغرفة، حيث لا يوجد إنارات مركبة في باقي البناء، بيد أنه يوجد العديد من الأضواء في أرجاء المزرعة، ونبقي أعمدة الإنارة البرتقالية على أطراف المزرعة منارة طوال الليل، ويصلنا من نورها القليل فقط.

نسهر عادة بعد وجبة العشاء في الغرفة لساعة أو ساعتين قبل أن ننام. رامي يدخن الأرجيلة وأنا أشرب القهوة، وأثناء ذلك نتسامر. خلال

واحدة من هذه السهرات، كان المبنى غير المكتمل والمزرعة جزءًا من حديث رامي.

"ماذا تقصد؟" سألته.

حرّك الفحم أعلى أرجيلته ثم أجاب، "هذه الأرض متنازع عليها. يقال إن صاحب المزرعة قتل أخاه كي يستحوذ عليها وحده. يقول الطب أن ميتة أخيه كانت طبيعية، لكن أنت تعلم، الكلام يتناقل بسرعة وهناك بعض الشكوك."

لم آخذ كلامه على محمل الجد، لكن خلال السهر، أغلب المواضيع تبدو مثيرة.

"هل حققت الشرطة في الأمر؟" سألته.

"لم يجدوا شيئًا. لا دليل على أن صاحب المزرعة مسؤول عن موت أخيه، لكن هناك شعور غريب يراودني وأنا هنا. كأن المزرعة تلفظني. أشعر أحيانًا أنني غير مرحب به. لم أشعر هكذا قبل موت الأخ. حتى وأنا داخل البيت البلاستيكي، أشعر ببرد غير مبرر. كأن شراييني تتحول إلى جليد. كأن هناك شيء ما يقول لي 'اهرب'"

"هل حصل أمر ما بالتحديد؟"

"لا أعلم. ربما لا يتعلق الأمر بهذه القصة. ربما لأنني أقضي الكثير من الوقت وحيدًا في مكان ناء، خاصة قبل مجيئك، أشعر بهذا الشـ..."

لم يكمل كلامه؛ فحفيف الشجر الشديد قاطعه؛ فمن غير المعتاد أن تتحرك الأشجار هكذا في منتصف تموز.

"أترى؟" سألني قبل أن يكمل، "هكذا أمور تجعلني أشعر بأن هناك أمرًا ما، لكن ليس من السهل أن أجد عملًا غير هذا. لو وجدت، لربما توقفت عن العمل هنا!"

لن أنكر أن صوت الشجر كان مريبًا، لكنني رأيت سابقًا الأمطار تتساقط في تموز، وليس فقط هبوب بعض الرياح، فلم يكن ذلك أكثر من حالة نادرة، وليس دليلًا بأي شكل من الأشكال على أن المزرعة تلفظ رامي. وهو بالتأكيد ليس سببًا بأن يشعر بأن شرايينه تحولت إلى جليد. ظننت لوهلة أنه يبالغ في الأمر، لكن ربما لم يجد طريقة أخرى ليفسر ما سمعه حول قتل صاحب المزرعة لأخيه. فكرت أنه لو كان حقًا يعتقد ذلك، لما بقي يعمل في المزرعة. خطرت ببالي فكرة ثانية وهي أن رامي تعمد ذلك الحديث ليخيفني، كنوع من المزاح الثقيل بين الزملاء.

بدأ رامي العمل قبل وفاة أخ صاحب المزرعة، وأنا لم أبدأ إلّا قبل أيام فقط، فلم أعرف عن القضية التي يتحدث عنها سوى عن طريقه. كتمت هذه الأفكار لنفسي وتحدثت معه بجدية، "هل ذهبت إلى طبيب؟ قد يكون هناك سبب ما لشعورك بالبرد!"

هزّ رأسه وهو يقول لي أن أنسى ما قلته له ثم أطفأ الفحم على أرجيلته بسرعة دون أن يكمل تدخين رأس المعسل. قام من مكانه وذهب

ووضع الأرجيلة قرب الباب الخشبي واتجه إلى فراشه ووضع اللحاف على جسمه. استغربت فعلته تلك، إلّا أنني ظننت أنه يمر بهكذا لحظات. في النهاية، أنا لا أعرفه جيدًا، ولا أعرف عنه بشكل مؤكد غير أنه يحب تدخين الأرجيلة وأن نومه عميق.

"أيقظني على صلاة الفجر،" طلب مني قبل أن يغمض عينيه.

***

استيقظت على صوت منبه هاتفي المحمول لصلاة الفجر. ناديت على رامي ليستيقظ. تنحنح قليلًا في فراشه فاطمأننت أنه سمعني.

خرجت من الغرفة لأتوضأ، وللوصول إلى المغسلة، يجب على المرء أن ينزل الدرج ويخرج من الباب الرئيسي للمبنى ويمشي بمحاذاة البناء قرابة عشرين مترًا. ولأن الباب مجرد فتحة في الباطون دون باب يقفل، كانت الكلاب أحيانًا تقف هناك. وهناك بجانب المغسلة يوجد موقد غاز صغير لصنع الشاي والقهوة للعاملين ولزوار المزرعة، بالإضافة إلى حمام صغير.

قبل وصولي الدرج، سمعت نهيق حمار فاستعذت بالله. توقفت للحظات قبل أن أنزل محاولًا هزّ فكرة وجود شيطان قريب عن رأسي.

نزلت سلم الدرج الأول، وعندما كان بإمكاني رؤية الباب، تفاجأت بظل جسد كبير يستند على الجدار أسفل الدرج، وينعكس عليه النور الباهت الواصل من أعمدة الإنارة البرتقالية المنتصبة على أطراف

المزرعة. تسمرت مكاني رهبة من ذلك المشهد للحظات قبل أن أستنتج أن ذلك الجسد ليس إلّا بدلة واقية نستخدمها عند رش المبيدات الحشرية.

قضيت حاجتي على ضوء هاتفي المحمول؛ فضوء الحمّام لم يعمل رغم عمله بشكل جيد الليلة الماضية. نويت أن أتفقده عند طلوع الشمس. توضأت بعدها ثم غسلت بكرجًا وملأته بالماء ووضعته على موقد الغاز. لاحظت أن كيس القهوة الذي نضعه هناك فارغ. استغربت من ذلك؛ فعندما صنعت القهوة قبل ساعات، كان هناك الكثير من القهوة في الكيس. على كل، نويت أن أجلب بعض القهوة من الغرفة عندما أصعد للصلاة فيها.

عندما عدت نحو الباب الرئيسي، وجدت بدلة الرش موضوعة على كرسي أمام الباب. استغربت عدم ملاحظتي لنزول رامي؛ فلا بد أنه هو من وضع بدلة الرش هناك. أدرت نظري حول المكان باحثًا عنه، إلّا أنني لم أره ولم أسمع له صوتًا.

يساعد النور القادم من أعمدة الإنارة بتحديد إطار الأجسام، ورأيت أحد هذه الأجسام يتحرك أسفل إحدى الأشجار. بحلقت به لثوان لأتبين ماهيته. نظرتْ عينتان لامعتان نحوي. انتصب ظهري عندما التقت أعيننا. "لا بد أنه كلب!" قلت لنفسي.

ثوان بعد ذلك، سمعت خشخشة بجانب أحد البيوت البلاستيكية فوجّهت نظري نحو مصدرها. حاولت رؤية المتسبب دون جدوى، فخمنّت أن رامي يعمل على تشغيل محابس المياه.

***

صعدت إلى الغرفة لأتفاجأ بوجود رامي نائمًا في فراشه. "هل عدت إلى النوم بسرعة!" قلت له مستغربًا من حبه للنوم وأنا واقف بباب الغرفة. لم ينتبه لندائي. توقفت مكاني للحظات أفكر بالطريقة التي عاد بها إلى الغرفة دون أن أراه؛ فأنا كنت قريبًا من الباب. "لا بد أن هناك بابًا آخر لا أعرفه!" تمتمت لنفسي، وقبل أن أرفع صوتي لأناديه مرة أخرى، قبضت يدان على عنقي وفمي بقوة ليكتم نفسي. حاولت مناداة رامي دون طائل. حاولت كذلك إزاحة يديّ المعتدي، لكن لم أستطع تحريكهما. فطنت لوجود أرجيلة رامي بقربي جانب الباب. مددت يدي وأمسكتها، وحاولت ضرب المعتدي، بيد أنني ضربت الباب الخشبي مرتين قبل أن أستطيع ضرب من كان يمسك بي. عندما ضربته، تكسر زجاج الأرجيلة وتناثر على أرضية الغرفة. ظلت اليدان محكمة حول عنقي فبدأ بصري يتشوش. لحظات ولم أعد أستطيع أن أرى ما حولي.

***

استيقظت هلعًا ويدي على رقبتي أتحسسها. تنفست الصعداء عندما أدركت أن ذلك كان كابوسًا. بقيت متمددًا في فراشي حتى هدأ قلبي.

نظرت عبر النافذة ورأيت اللون الأزرق بدأ يبدد سواد السماء، تفقدت ساعة هاتفي المحمول فوجدت أن الشروق قريب. قمت من فراشي مسرعًا وناديت على رامي ليستيقظ. ودون أن أنتبه لردة فعله، هممت بالخروج من الغرفة والنزول نحو المغسلة للوضوء، لكن عند وصولي باب الغرفة، وجدت زجاج أرجيلة رامي متكسرًا على أرضية الغرفة. ورأيت كذلك خدشين في الباب الخشبي.

شعرت أن شراييني تحولت إلى جليد.

******

السادس من آذار

"كان محقًا من نصحني بتوكيلك. أنت حقًا محقق خاص مميز! كيف تفعل هذا؟" قال لي أحد العملاء قبل أن يعطيني أجري مقابل قضية وكلني بها.

"لا أريد التفاخر، لكن أحاول الانتباه للتفاصيل، ولا أؤمن بوجود صدف، ولديّ ذاكرة جيدة،" أجبته.

ابتسم بوجهي ثم مد يده وشكرني.

مددت يدي أنا كذلك أصافحه، "تشرفت بمعرفتك!"

لاحظت أنه انتبه إلى يدي التي ينقصها خنصر وبنصر، فوضّحت له، "ڤيتنام!"

هزّ رأسه متفهمًا وقال، "شكرًا لخدمتك!"

أومأت له برأسي قبل أن أعود لسيارتي وأتجه إلى المنزل.

***

كنت قادرًا على سماع صوت رنين الهاتف قبل دخولي البيت، فأسرعت خطاي لكي لا أفوّت المكالمة. "مرحبًا،" أجبت.

"مرحبًا، لوكاس."

أدركت فورًا أنها طليقتي، وكان اتصالها في ذلك التاريخ عادة سنوية؛ فهي تتصل لتطمئن على صحتي قبل ذكرى ميلاد ابنتنا والتي فقدناها قبل أربع سنوات حيث اختفت قبل ذكرى ميلادها بيوم، ولم نعثر على أثر لها منذ ذلك الحين رغم أنني لم أتوقف عن البحث عمّا حصل لها تمامًا. تدّعي طليقتي أنني أمسيت مهووسًا بالقضية، فلم تصبر على حالتي فانفصلنا بعد عدة شهور.

"مرحبًا، إيميلي. كيف حالك؟"

"بخير. نود أنا وجيك أن ندعوك للعشاء معنا، إن كان عندك متسع من الوقت!"

"أشكركما على الدعوة، لكن يجب أن أعتذر."

"إن غيرت رأيك، أعلمنا. اعتن بنفسك، لوكاس."

لم أجب دعوتها أبدًا، ورغم ذلك تستمر بدعوتي. لا أعلم إن كانت تدعوني فقط من باب المجاملة أم أنهما فعلًا يريدانني بينهما على وجبة عشاء. هززت رأسي نافضًا هذه التساؤلات واتجهت نحو ثلاجتي أخرج ما أجد من بقايا الطعام الذي اشتريته الليلة السابقة. وقبل أن أختار ما بين ما بقي من بيتزا الخضار أو النودلز، رنّ هاتفي مرة أخرى. ظننت بادئ الأمر أنها إيميلي تريد الإصرار على دعوتي. ربما كان أمنية أكثر مما

هو توقع. على أي حال، كان صوت رجل غريب، "مرحبًا. السيد أوين مور يتحدث. هل يتحدث معي المحقق الخاص لوكاس أندروز؟"

"مرحبًا، سيد مور. كيف يمكنني أن أساعدك؟"

***

توجهت مباشرة إلى العنوان الذي أعطاني إياه، وكان الليل قد هبط، بيد أن أنوار حديقة البيت الكبير بددت الظلام.

جلست مع الأب بغرفة ضيوف واسعة، وجاءت خادمة تسألنا عما نرغب بشربه. شكرتها وقلت لها بأنني لا أريد شيئًا؛ فالقلق بأعين الرجل جعلني أريد دخول صلب الموضوع بسرعة. وبينما كان يقضم أظافره، أخبرني، "اختفت ابنتي اليوم! لم تكمل الخامسة بعد! في الحقيقة، غدًا ذكرى ميلادها!"

لفت انتباهي أن يوم ميلاد ابنته يصادف نفس ذكرى ميلاد ابنتي الراحلة. ذهب فكري إلى سنوات سابقة نحو قضية اختفاء طفلة أيضًا وقعت في آذار. لم أكن متأكدًا من تاريخ وقوعها بالضبط، إلّا أنني نويت أن أبحث عنه. قاطعته قائلًا، "لا أعمل على البحث عن أطفال. أقدّر قلقـ..."

قاطعني هو بدوره، "إنها كفيفة! أريدك أنت لأنك... أنا آسف، لكنك تعرف شعور أن يفقد الأب ابنته! أعدها سالمة، وسأعطيك ما تريد!"

"سأفعل كل ما في وسعي!"

رغم أنني لا أقبل بمثل هذه قضايا، إلّا أنني تصرفت معه على كوني لوكاس الأب قبل لوكاس المحقق الخاص. أخبرته بألّا يفعل أي شيء حول القضية وألّا يخبر أحدًا، وطلبت منه أن يعطيني بعض المعلومات عن ابنته، وكان قد جهز فعلًا عدة ملفات وصور ومعلومات حولها، لكن هناك معلومة حول قضية سابقة كان يجب أن أتأكد منها في الصباح التالي.

***

ذهبت إلى قسم الشرطة في منطقتي حيث استقبلني النقيب دونالد ساندرز بحفاوة؛ فنحن عملنا معًا سابقًا على حل عدة قضايا.

"أتعلم؟" بدأ حديثه، "أنت تذكّرني بنفسي، فأنت ذكي ومثابر."

"وأعزب كذلك!" قلت ممازحًا. ابتسمنا للحظة لتعليقي قبل تحول اتجاه شفاهنا إلى الأسفل؛ فبالإضافة إلى أنه منفصل عن زوجته، هو أيضًا فقد ابنته وهي بعمر صغير. وربما كان وقع فقدان ابنة عليه أكبر مما كان عليّ؛ فهو احتاج إلى جلسات عديدة مع طبيب نفسي.

"أحتاج أن تساعدني بأمر ما،" دخلت صلب الموضوع.

وضع مرفقيه على مكتبه وحنى ظهره إلى الأمام وأسند فكه على ظاهر يديه.

"هناك قضية أعمل عليها، ولكنني بحاجة إلى ملف قضية باردة. قضية اختفاء ابنة سكرتيرة المدعي العام السابقة. أتذكر القضية؟" قلت له.

ابتسم لثانية ثم هزّ رأسه إيجابًا قبل أن يستفسر مني، "ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟"

لم أجد سببًا لابتسامته، ولم يكن عندي الوقت للاستفسار. أجبته مباشرة، "يوم ميلاد الطفلة."

رفع النقيب حاجبيه قبل أن يسند ظهره على كرسي مكتبه قبل أن أوضح له، "هناك قضية أعمل عليها. اختفاء طفلة، وتتشارك الطفلة وابنتي نفس يوم الميلاد. السادس من آذار. قد يقول المرء أن هذه مصادفة، لكن في قاموسي لا وجود لهذه الكلمة..."

وقبل أن أكمل، استوضح النقيب، "وتعتقد أن ابنة سكرتيرة المدعي العام لها نفس يوم عيد الميلاد كذلك؟"

هززت رأسي إيجابًا.

أشار لي أن أنتظر قليلًا، وطلب رقمًا على الهاتف. أمر الطرف الآخر أن يبحث عن المعلومة التي سألت عنها. بعد الانتهاء من المكالمة، طلب مني أن أنتظر حتى يكملوا البحث.

"وماذا لو كان لديها نفس يوم عيد الميلاد؟" سألني.

تململت في مقعدي وأجبته دون مواربة، "لو كان الأمر كذلك، قد يكون للأمر علاقة بقضية مدينة شيكاغو ضد ليام ويلسون قبل سنوات." توقفت قليلًا عن الحديث ونظرت إليه أتأكد إن كان يتذكر القضية. لم يطلب مني تفسيرًا، فأكملت، "لقد تم إعدامه ظلمًا في شهر آذار. لا أذكر أي يوم بالضبط، لكن لو كان يوم إعدامه يطابق يوم عيد ميلاد الطفلات، أي السادس من آذار، قد يكون انتقامًا من أقاربه أو أصدقائه لتذكيرنا بالظلم الذي وقع على ليام. في النهاية، سكرتيرة المدعي العام وأنا وموكلي لهذه القضية لنا صلة بالجهات القانونية والقضائية هنا!"

"تختلف طرق تعامل الناس مع فقدان الأحبة؛ فبعضهم يتقبل الأمر ويتجاوزه، وبعضهم يحاول إعادة إحياء اللحظات الجميلة مع من فقد، والآن، يبدو أن هناك من يريد الانتقام من المتسبب بهذا الفقدان، رغم أنهم حصلوا على تعويض. أذكر أنه كان له ابنة صغيرة، أليس كذلك؟"

"المال لا يعيد إحياء من مات. ونعم، لديه ابنة، لكنها صغيرة جدًا على أن تكون هي من تقوم بذلك، على فرض أن استنتاجي صحيح!"

"قلت أن موكلك له صلة بالجهات القانونية والقضائية، كيف كذلك؟"

"ليست صلة قريبة، لكن له علاقة بقضية ويلسون حيث كان أحد لجنة المحكمين في قضيته!"

رفع النقيب حاجبيه وقال، "فرضيتك مقبولة جدًا، لكن لماذا يفعل ذلك؟ لماذا... سأتصل بمأمور السجن!"

أخرج النقيب دفترًا كبيرًا وقلّب في صفحاته حتى وجد رقم هاتف مأمور السجن. اتصل فيه وسأله عن تاريخ إعدام ويلسون بالضبط. انتظر الإجابة على الخط لدقيقة قبل أن يشكر مأمور السجن على تعاونه. أقفل الخط ونظر اتجاهي لثوان قبل أن يقول، "كان توقعك في مكانه، لكن ألا يمكن أن يكون هذا، رغم عدم اعترافك بالكلمة، مصادفة؟"

وقبل أن أجيب، رنّ هاتفه مرة أخرى.

"مرحبًا."

"..."

"نعم!"

"..."

"شكرًا جزيلًا!"

نظر النقيب اتجاهي بعدما انتهى من المكالمة الهاتفية وقال، "لقد وجدوا تاريخ ميلاد ابنة سكرتيرة المدعي العام. السادس من آذار. لا يمكن أن تكون مصادفة!"

أول ما فكرت به عندما أخبرني بذلك أنه من الصعب على شخص واحد حل قضية كهذه، خاصة لو كان محققًا خاصًا، وكأن النقيب قرأ أفكاري، عرض عليّ، "لا يمكنك فعل هذا لوحدك، لكن سأعطيك كل

الملفات التي تطلبها حتى تجد أي خيط يقودنا إلى المسؤول. سأمهلك حتى الساعة الثالثة اليوم، وبعدها ستتولى الشرطة الأمر، وبالتأكيد ستساعدنا. وبما أنك صاحب الفضل باكتشاف هذه العلاقة، أريدك أن تعرف ما يمكن معرفته حول هذا الأمر قبل أي شخص آخر. ما رأيك؟"

وافقت على اقتراحه وطلبت منه أن يزودني بكل ما يتوفر عندهم من ملفات حول ليام ويلسون وأقربائه وأصدقائه المقربين.

"سنشرب القهوة بينما نرتب لك ما يلزم!" قال لي.

***

عدت إلي منزلي بسرعة أحاول مسابقة الوقت.

كنت أقرأ الملفات وأدوّن ما يلفتني من ملاحظات مدركًا لحقيقة أنني لن أستطيع الوصول إلى المسؤول خلال الساعات القليلة المتبقية لديّ، بيد أنني كنت مصرًا على إيجاد خيوط تقودنا إليه، فدون دليل قوي لا يمكن أن نكوّن قضية، وسيبقى كلامي مجرد فرضية.

حاولت النظر إلى الملفات بشكل متزامن توفيرًا للوقت، لكن كان ذلك مشتتًا لي.

بدأت بالتركيز على ملف واحد، ملف الشخص الذي اعتقدت أنه يملك الدافع الأكبر لفعل ما يفعل... زوجة ليام.

رغم امتلاك زوجته الدافع لفعل ذلك بسبب شعورها بالظلم، إلّا أن حصولها على مبلغ تعويض كبير من المدينة قد يجعلها تعدل عن فعل أي شيء يضر الآخرين.

شرعت بقراءة الملف بتمعن أكبر ووجدت أنها ساهمت بإنشاء مؤسسة تعنى بتدريب المحامين بشكل أفضل، وتبرعت كذلك بمبلغ مالي سخيّ لمختبر أدلة جنائية في المنطقة، والآن هي شخصية لها احترامها في المدينة، ومن غير دليل واضح على ضلوعها بحالات اختفاء الطفلات، سنفتح على أنفسنا النار.

قمت إلى المطبخ لإعداد كوب قهوة آخر لتصفية ذهني. وأنا واقف عند موقد الغاز، غزت رأسي أفكار إيجاد المسؤول لأنتقم منه لاختطافه ابنتي. أذكر جيدًا اليوم الذي اختفت فيه، وأذكر تسريحة شعرها وملابسها يومها. فستان شتوي أبيض عليه رسومات قطط صغيرة. بدأت أتخيل نفسي أمامه أذكّره بابنتي والطفلتين الأخرتين. ولو سنحت الفرصة لي، سأقتله حينها. حاولت فصل مشاعري الخاصة عن مهنتي في البحث عن المسؤول، لكن كان ذلك صعبًا عليّ. كانت نيتي صنع القهوة لمساعدتي في التركيز، إلّا أن فكري تشتت بشكل أكبر وأنا أصنعها. بدأت بعض خيالاتي تمتزج ببعض ذكرياتي من الحرب، فحاولت التفكير بأمر آخر دون فائدة. بدأ نبض قلبي يتسارع عندما شعرت أنني سأكون مسؤولًا

عن مقتل الطفلة الكفيفة لأنني أخبرت والدها ألّا يفعل شيئًا دون إشارة مني. كيف فكرت بذلك وأنا لم أستطع إنقاذ طفلتي؟

لم ينتشلني من أفكاري سوى صوت الماء المغلي ينسكب على موقد الغاز.

"يجب أن نجد المسؤول بأقرب وقت!" تمتمت لنفسي قبل أن أسمع صوت الهاتف القادم من الصالة.

رفعت السماعة، وقبل سؤالي عن هوية المتصل، بدأ النقيب الحديث، "هل توصلت إلى أمر ما؟"

"لا. لا شيء يذكر."

"لا بأس. فعلت ما بوسعك بوقت قصير. أعطني معلومات الأهل لنخبرهم أن قسم الشرطة سيتولى القضية، وسأحاول طمأنتهم؛ فمن المؤكد أنهم قلقين على طفلتهم، خاصة وأنها كفيفة!"

قبل أن أرد عليه، فطنت لحقيقة أنني لم أخبره بأن الطفلة كفيفة. لم أرد أن استفسر منه كيف عرف هذه الحقيقة فقلت له، "فعلًا. ستكون قضية صعبة. سأتصل بك لاحقًا!"

قد يكون التفكير المفرط ضارًا بصحة المرء، لكن حسب خبرتي، غالبًا ما يكون مفيدًا عند التحقيق بقضية ما. زلة لسان النقيب لم تضعه في لائحة المتهمين لديّ، والتي لم يكن فيها أي اسم أصلًا، بيد أنها جعلتني

حذرًا من أن أخبره أي شيء أتوصل له. تخميني الأول كان أنه سمع عن الحادثة من مكان ما؛ فمن الصعب إخفاء هكذا أمر حتى لو طلبت من الأهل عدم الإفصاح عنه.

على أي حال، كان عليّ التأكد من أن الوالد التزم بما قلت له فاتصلت به. أكد لي أن لا أحد يعرف بأمر اختفاء الطفلة سوانا الإثنين وزوجته.

استلزمني الأمر دقائق كي أتقبل فكرة إمكانية ضلوع دونالد بقضية اختطاف الأطفال، بيد أنه لم يكن لديّ الوقت، فحاولت تجاهل مشاعري، وأن أركز على المؤشرات التي ظهرت أمامي.

كنت بحاجة إلى معلومات إضافية حول دونالد، وجاء ببالي أن أسأل طبيبه النفسي، لكن سرية الطبيب والمريض ستمنع حصولي على أية إجابة مفيدة من الطبيب، على الأقل دون انتظار طويل، بيد أنه كان عليّ أن أبدأ من مكان ما، من شخص ما.

***

بعد انفصال دونالد عن زوجته، ظلت هي في المنزل ذاته، وانتقل هو إلى بيت قديم في طرف المدينة. قبل الانفصال، دعاني أنا وزوجتي مرتين إلى منزلهما. لم أكن متاكدًا إن غيّرت طليقته مكان سكنها أم لا، إلّا أنه كان عليّ المراهنة أنها لم تغيره.

قدت إلى بيتها على وجه السرعة.

طرقت الباب غير متأكد من هوية من سيفتحه. بعد ثوان، جاء صوتها من الداخل تسأل عن هوية الطارق، "من هذا؟"

"لوكاس أندروز."

سمعت خطاها تتسارع قبل أن تصل الباب وتفتحه وتسألني بنبرة قلقة، "هل دونالد بخير؟ أخبرني!"

"نعم! تحدثت معه على الهاتف قبل قليل،" أجبتها بهدوء أحاول طمأنتها، جاهلًا سبب قلقها.

"وأنا كذلك! إنه مجنون!" قالت بصوت عال. نظرتْ حولها تتأكد أن لا أحد سمعها سواي.

"ماذا تقصدين؟"

أزاحت نفسها من على الباب متيحة لي الدخول. ما إن خطوت داخل البيت، قالت، "اتصل قبل قليل، رغم أنني غيرت رقم هاتفي، ودعاني إلى حفلة عيد ميلاد ابنتنا!"

"ابنتكما؟ هل لديكما ابنة غير..."

"لا!" صرخت بوجهي. "إنه مجنون! لم تجد جلسات الطب النفسي نفعًا معه!"

"اهدئي رجاءً! متى قام بدعوتك؟"

"اليوم!"

"أقصد موعد الحفلة. متى عيد ميلاد ابنتكما؟"

"اليوم. السادس من آذار!"

لا أعلم كيف لم أتذكر ذلك؛ فإحدى المرتين التي دعوانا فيها إلى بيتهما كان حفلة عيد ميلاد ابنتهما الراحلة. ربما نسيت ذلك التاريخ لأن ابنتي لم تكن مولودة حينها، ولم يكن لذلك التاريخ أهمية لي بعد. ذكّرني كلامها بما قاله لي صباحًا، "تختلف طرق تعامل الناس مع فقدان الأحبة... وبعضهم يحاول إعادة إحياء اللحظات الجميلة مع من فقد..."

لم أكترث بادئ الأمر بما قصد حول إعادة إحياء اللحظات الجميلة مع من فقدناهم، بيد أن كلام طليقته حول جنونه وهوسه جعل دونالد متهمًا به بالنسبة لي.

الحل الوحيد أمامنا لإنقاذ الطفلة كان اقتحام بيته والبحث عنها. توجب عليّ التأكد من أنه ليس بالبيت.

وجدت هاتفًا عموميًا على زاوية الشارع عند منزل طليقة دونالد. استخدمته للاتصال على هاتفه في المركز، إذ أنني لم أحبذ استخدام هاتف طليقته.

أجابني بسرعة لأعلم أنه في المركز.

"تجاوزت الساعة الثالثة. أريد أن أعيد لك الملفات. لم أجد شيئًا يذكر،" قلت له عبر الهاتف.

"يمكنك جلبهم صباح الغد."

"حسنًا! ربما سأجد الليلة شيئًا يقربنا من المجرم."

أقفلت الهاتف واتجهت مسرعًا نحو بيتي حيث كان عليّ جلب مسدسي، وارتديت كذلك معطفًا وقبعة حيث بدأت الحرارة بالهبوط.
تمنيت أن دونالد لم يعد لبيته خلال طريقي إليه.

***

ركنت سيارتي بعيدًا عن بيته. نظرت يمينًا وشمالًا مترقبًا وصول سيارة دونالد. لم ألحظها، ولم أجد سوى بعض السيارات حيث كانت الحركة في أطراف المدينة هادئة، وكان هناك بعض الأشخاص على أطراف الطريق، بعضهم واقفين مكانهم وبعضهم يتمشى. على يميني، رأيت المنظر العام للمدينة حيث تتسابق العمارات بالوصول إلى السماء حاجبة أشعة الشمس من الوصول إلى الأرض. وعلى يساري، كانت أبنية قليلة متناثرة هنا وهناك ولم يصلها سوى بعض خيوط الشمس التي استطاعت التسلل من بين الأبنية المرتفعة.

وضعت قبعتي على رأسي وتأكدت من مسدسي ووضعته على جانبي وأخفيته بطرف معطفي. ترجلت من سيارتي واقتربت من بيت النقيب الذي يميزه وجود شجرة قيقب أحمر أمامه. وعندما كنت على وشك صعود درجات شرفته، خرج كلب كبير من بيت خشبي مخصص

للكلاب وبدأ النباح اتجاهي. لم أنتبه للبيت حيث أنه كان خلف الشجرة. كان الكلب مربوطًا بها، إلّا أنني أخذت بعض الخطوات للخلف، ونظرت إلى الناس حولي بعدما لفت نباح الكلب انتباههم نحوي. أعدت نظري نحو كوخ الكلب لأجد اسمه مكتوبًا عليه.

"بيلي! أيها الكلب الجيد!" قلت له أحاول ملاعبته. هدأ نباحه قليلًا فنظرت اتجاه الناس فوجدت أنهم أزاحوا أنظارهم عني.

"بيلي!" ناديت الكلب وخلعت قبعتي ورميتها خلف بيته الخشبي بقليل حتى يبتعد عني مسافة تسمح لي باقتحام البيت. فعلت ذلك وأسرعت نحو الباب. لم أكترث حينها بردة فعل من كان على الشارع، بل كان تركيزي كله منصب على إيجاد الطفلة بخير. ركلت الباب الخشبي بقوة مرتين فخلعت قفله. ساعدني بذلك العمر الكبير للبيت.

دخلت المنزل وإصبعي على زناد مسدسي. أغلقت الباب ووضعت خلفه مزهرية زجاجية صغيرة وجدتها قربه ليبدو مقفلًا من بعيد. بدأ بعض من رآني أقتحم المنزل بالصراخ نحوي وتهديدي بالاتصال بالشرطة إن لم أخرج. لم أهتم لصراخهم.

"هل من أحد هنا؟" ناديت مرتين لأسمع صوتًا مكتومًا قادمًا من غرفة في مؤخرة المنزل. هرعت نحو مصدر الصوت، فركضت كامل

رواق البيت قبل أن أدلف غرفة صغيرة لأجد الطفلة مكبلة فيها، وعلى فمها شريط لاصق. كانت على سرير صغير وبجانبها بعض الصور.

"لا تقلقي، صغيرتي!" قلت لها مطمئنًا وخلعت معطفي ووضعته عليها.

تمعنت بعدها بالصور الموضوعة جانبها فرأيت صورة لدونالد وبجانبه طفلة وأمامهما كعكة عيد ميلاد، ولكن كان يوجد أقصوصة على شكل وجه طفلته ملصقة مكان رأس الطفلة في الصورة، وكذلك أقصوصة لصورة طليقته ملصقة بجانبهما. ثوان ورأيت صورة أخرى يحتضن فيها دونالد طفلة ترتدي فستانًا شتويًا أبيض عليه رسومات قطط. كان واضحًا أنها ابنتي رغم أنه ألصق وجه ابنته فوق وجه ابنتي. كدت أصرخ غضبًا مما رأيت، أو ربما حزنًا، أو ربما مزيجًا بين الإثنين.

أصبح صراخ من كانوا باب المنزل مكتومًا، إلّا أن صوت تكسر زجاج المزهرية التي وضعتها على الباب كان مسموعًا. اعتقدت أن من رأوني أقتحم البيت لحقوا بي، فعدت إلى رواق البيت متوقعًا رؤية من كانوا خارج المنزل.

كنا الإثنين متفاجئين؛ فلم يكن دونالد يتوقعني في بيته، ولم أكن أتوقع أن يصل مبكرًا.

لكن ها نحن ذا...

كان واقفًا بباب بيته، في إحدى يديه مسدس وفي الأخرى كعكة عيد ميلاد.

"يوجد الكثير من الشهود،" قلت له بينما كنت قادرًا على سماعهم خارج الباب. الكلب كذلك كان ينبح بين حين وآخر.

"عندما أخبروني في الخارج أن لصًا اقتحم منزلي، لم أتخيل أن تكون أنت. من الواضح أنه لن يكون هناك حفلة عيد ميلاد اليوم. كنت متحمسًا جدًا لها. في الحقيقة، قمت بدعوة زوجتي للمرة الأولى!" رد ببرود.

أدركت أنه يقصد طليقته بكلامه، فأيقنت أن دونالد الذي أعرفه قد رحل. سألته، "لماذا تفعل هذا؟"

"كما قلت لك هذا الصباح، بعض الناس يريدون إعادة إحياء بعض اللحظات الجميلة."

"لقد قتلت طفلتين، منهم ابنتي، واختطفت ثالثة، وحاولت تلفيق القضية لأشخاص بريئين. أنت مجنون!"

"ربما."

جزء مني تمنى أن يقوم بعمل متسرع كي يعطيني الحجة لأطلق عليه النار. لو فعل ذلك، ربما سأفرغ مخزن الرصاص كاملًا في جسده، لكنني حاولت البقاء ضابطًا لأعصابي.

"كنتَ مثالًا أحتذي به. جعلتني أؤمن أن صفارات سيارة الشرطة تعطينا الشعور بالأمان، وأننا حقًا في خدمة الشعب، وأن نساعد في أن يعم السلام والحب مجتمعنا!" قلت له.

"لم يكن العنف مقصدي مما فعلت. فعلت ذلك بدافع الحب فقط!"

"ضع سلاحك أرضًا! استسلم! لا يوجد حاجة لإزهاق المزيد من الأرواح البريئة!" قلت له بينما بدأنا بسماع صفارات سيارات الشرطة تقترب.

"أنت محق، لا يوجد حاجة لإزهاق المزيد من الأرواح البريئة، لكنني لست بريئًا!" فور أن انتهى من كلامه، وجّه فوهة سلاحه نحو فمه وأطلق النار.

صرخت الطفلة عند سماع دويّ الطلقة فضممتها إلى صدري وأسرعت نحو الباب.

"كل شيء على ما يرام!" قلت للمتفرجين في الخارج، بيد أن ذلك لم يمح القلق عن وجوههم. الكلب بدوره بدا متأثرًا مما حصل؛ فبطرف عيني لاحظته باسطًا ذراعيه وخافضًا رأسه يأنّ وهو باب بيته الخشبي.

جلست على الدرجة الأولى من الشرفة ألتقط أنفاسي.

"اشتقت لوالديّ!" قالت لي الطفلة وأنا أضمها إلى صدري.

"لا تقلقي، عزيزتي. ستعودين إليهما بعد قليل!"

كانت تلك المرة الأولى التي أحضن فيها شخصًا منذ أربع سنوات. أدركت كم كنت بحاجة إلى دفء غير الدفء الذي تمدني فيه ملابسي. ضممتها بقوة أكبر إلى صدري، "لا تقلقي، يا طفلة!"

وبدورها وضعت يديها حول رقبتي وهمست لي، "كنت متأكدة أنه سيأتي أحد لينقذني، فالعالم مليء بالأخيار، أليس كذلك؟"

لم أجبها؛ حيث أنني أدرت رأسي إلى داخل البيت لأرى جثة دونالد هامدة، ثم نظرت إلى الشارع أمام المنزل لأرى سيارات الشرطة تقترب، ونظرت إلى الأفق لأجد البنايات المرتفعة حجبت آخر خيوط الشمس ومنعتها من الوصول إلينا.

"أليس كذلك؟" أعادت سؤالها.

لم أحر إجابة.

******

هامش

أطيل بعنقي خارج الخيمة أتفقد حالة الطقس فأراه غائمًا مع فرصة لسقوط الصواريخ.

ليس الوضع الأنسب للعب كرة القدم مع أصدقائي، لكن لا يبدو أن الحالة ستتحسن قريبًا. أنظر إلى أمي فأراها على هاتفها. ألتقط كرة الميكاسا وأهم بالخروج من الخيمة إلّا أنها انتبهت لي فأوقفتني متساءلة، "إلى أين أنت ذاهب مع الكرة؟"

لا أرغب باختلاق كذبة فأجيب بصدق، "سنحاول إيجاد مكان للعب كرة القدم. الساحة التي كنا نلعب بها الأيام الماضية تحولت إلى مقبرة."

تميل والدتي رأسها مستغربة إجابتي وتقول، "ربما لهذا السبب من الأفضل ألّا تخرج. هل تريد حقًا لعب كرة القدم في هكذا وضع خطر؟"

أهز كتفي لا أحير إجابة مقنعة، ربما لأنه لا يوجد هناك واحدة.

تكمل والدتي، "لا نزال نستطيع شم رائحة الحريق في الخيام التي تبعد قليلًا بعد مجزرة أمس. الوضع خطر جدًا!"

"ها أنت قلتها... الحريق في الخيام. هذا يعني أنني سأكون أكثر أمنًا في الخارج!"

أقول هذا وأنا مقتنع أنه غير صحيح؛ فهنا لا يوجد مكان آمن، حتى تلك الأماكن التي وصفت بأنها مناطق آمنة، لكن أرغب حقًا بلعب كرة القدم للتخفيف قليلًا من وطأة هذا الحال.

تدير والدتي رأسها حول الخيمة الصغيرة كأنها تبحث عن والدي يساندها كما كان يفعل سابقًا في منزلنا، لكن الآن لا وجود للمنزل ولا لأبي.

تنظر إليّ مجددًا وتقول، "هذه ليست مناظرة بيننا. أنت ابني الأصغر وأخاف عليك!"

"لم أعد ابنك الأصغر!" أقول لها بنبرة جادة. تنظر إليّ تنتظر تفسيرًا. أكمل، "الآن أنا ابنك الأكبر. ابنك الوحيد. لم يتبق أحد. لا أخي ولا شهاداته المدرسية، ولا أبي ولا مكتبته، ولا روايته التي لم يكمل كتابتها. أخي وأبي وعدة أقارب وجيران، كشخصيات الرواية التي كان يكتبها والدي، ذهبوا دون أن تكتمل قصصهم. لم يبق منهم سوى بعض الذكريات، ومنها هذه." أشير إلى الكرة والتي كان أهداني إياها والدي قبل شهور. أكمل، "لهذا أرغب بلعب كرة القدم أكثر من ذي قبل؛ لأن الكرة تذكرني بالقليل من الحياة التي كانت لدينا. ألعب وأنا أتضور جوعًا، لكنني جائع لحياة شبه طبيعية أكثر من توقي لأي طعام."

تشيح والدتي بنظرها قليلًا، ربما لإخفاء ملامح وجهها، أو أنها لا تريد أن أراها تبكي. لا أتوقف عن الحديث، ولا أتحدث معها بالقدر الذي أتحدث فيه مع نفسي بصوت عال. أقول، "يخبروننا بأننا كنا محظوظين لأننا كنا خارج البيت عندما تم قصفه. لا. هذا ليس حظًا. لو كنا محظوظين لما كنا هنا الآن!"

أدير ظهري وأخرج من الخيمة، التي لن أصفها أبدًا بأنها خيمتنا.

***

أتجه للخيمة التي تنزح فيها عائلة أسيد لنذهب أنا وإياه للبحث عن مكان نلعب فيه كرة القدم. أجده خارج الخيمة، ورغم أنه يدير ظهره لي غير أنني أميزه بسهولة؛ فساعة يده البرتقالية التي لا تفارق يده تميزه عن غيره.

"صباح الخير،" أبدأ حديثي معه، لا يزال يدير ظهره.

عند سماع صوتي ينظر اتجاهي ويقول، "الخير؟"

أشير برأسي نحو الكرة فيقول لي، "هناك مكان جيد قرب الشاطئ. ليس مستويًا تمامًا، لكنه أفضل من لا شيء. أخبرني عنه صديق أخي."

"رحمه الله."

"رحمهم الله جميعًا."

يصمت أسيد قليلًا قبل أن ينبهني، "سيكون البقية بانتظارنا هناك، لكن احذر عند ركضك بالكرة؛ قد تسقط لأن أرضية الساحة غير مستوية."

"سنرى."

يهز أسيد رأسه ويبدأ المسير اتجاه الملعب بنظرات وخطوات مترددة؛ فهو مثلي لا يزال يتعرف على ملامح المخيم.

***

بعد المشي لقرابة عشر دقائق نصل إلى منطقة شبه مستوية ترتفع قليلًا عن محيطها، وهناك أحجار موضوعة على طرفي المنطقة المرتفعة لتحدد المرميين. ولا وجود لحاجز يحمي الكرة من الابتعاد عن ساحة الملعب بحالة تسديدها بعيدًا. بدت الساحة كسنام جمل نوعًا ما. وفي البعيد، أستطيع رؤية البحر وبعض الأشخاص على الشاطئ. ربما لو كان الطقس مشمسًا لكان هناك أشخاص أكثر.

نرى الأصدقاء على ساحة اللعب، بالإضافة إلى لاعبين لا أعرفهم. كان بعضهم يسدد بعض التسديدات بكرة صغيرة مثقوبة.

رآني أحدهم أقترب فصاح، "ها قد جاءت الكرة!"

ليكمل آخر، "وجاء الصاروخ!"

التفت اللاعبين الذين لا أعرفهم إلى السماء خائفين قبل أن يوضح لهم القائل وهو يشير إليّ، "هو الصاروخ. وأسرع من الصاروخ. أراهنك أنه يستطيع الهروب من قذيفة لو سقطت عليه."

يضحك من يعرفني من اللاعبين على كلامه، ويقول أحدهم، "سيلعب معي."

يحتج الآخرون مطالبين بأن ألعب في فريقهم.

على كل حال، ننتهي من اختيار اللاعبين ونبدأ اللعب.

لا أرغب بالتسديد من بعيد خوفًا من أن تبتعد الكرة كثيرًا عن الملعب، ولهذا أحاول الاقتراب من المرمى وتسديد كرة دقيقة.

أسجل هدفين بهذه الطريقة. لحق حارس مرمى الفريق الخصم الكرة لجلبها فظهر العرق على جبينه.

بعدها بدقيقة أمر عن لاعبي الخصم جميعهم سوى الحارس قبل أن أسدد الكرة في المرمى هدفًا ثالثًا.

يرفض الحارس اللحاق بالكرة بحجة أنه متعب. أتابع الكرة تبتعد عن الملعب، وأنظر إلى الشبان على الشاطئ فأخاف أن يلتقطها أحدهم. أركض بنفسي خلف الكرة لجلبها، وما أن أصلها وأمسكها أسقط أرضًا على وجهي إلّا أنني لا أفلتها.

يصمّ صوت الانفجار أذني، وأشعر بحرارة النار تلفحني، فأدرك ما الذي حصل، بيد أنني لا أستطيع إدارة رأسي فورًا.

أسمع صراخ الناس تقترب من مصدر الانفجار فأقوم عن الأرض والتفت اتجاههم لتفقد أصدقائي. لا أمشي سوى أمتار قليلة قبل أن أجد ذراعًا مقطوعة أمامي، وعليها ساعة يد برتقالية.

يجمع الطفل الصدف على الشاطئ، أمّا الآن أنا أجثو على ركبتي أحمل يد صديقي المقطوعة بيدي، بينما لا تزال الكرة تحت الأخرى.

لا أعرف أحدًا في عمري أسرع مني بالركض، لكن الآن قدماي تتسمران في الأرض. تنغرسان غرسًا.

ثوان ويقترب شاب مني. يشدني من كتفي يصيح بي بكلمات لا أنتبه لها. بعد ثوان أستطيع تمييزه بأنه صديق أخي يخبرني بأن أعود إلى أمي لأنها ستكون قلقة.

ألتفت اتجاه الانفجار إذ به حوّل المنطقة التي كانت مرتفعة عن محيطها قبل دقائق إلى واد صغير.

يستمر صديق أخي بهز كتفي والطلب مني أن أعود إلى أمي. أهز رأسي موافقًا وأبدأ السير إلى الخيمة ونظري يدور بكل الاتجاهات بحثًا عن كيس أضع يد أسيد فيه.

***

لا أجد أمي في الخيمة. أستغرب أنها خرجت تاركة كل شيء خلفها. للحظات أتمنى بأنني كنت مع من قُتل بالقذيفة؛ لأنه لا يبدو أنني أستطيع تحمل أكثر من هذا.

أفكر بوالدتي كيف تحملت فقدان زوجها وابنها وبيتها ورغم ذلك تواصل الاعتناء بي دون كلل. وكأنني استحضرها عندما أفكر بها؛ فها هي تدخل الخيمة وتحتضنني وتقول، "ظننتك قُتلت بالقصف بادئ الأمر إلى أن أخبروني أنك بخير!"

تتحدث والدتي ورأسها على كتفي، غير منتبهة إلى الكيس الذي أحمله. تكمل، "ظننت أنني لن أكون أمًا بعد اليوم. ظننت أنني فقدتك!"

"أمي،" أبدأ الحديث معها، لكنها لا تزال تحتضنني، أشعر بدمعها الدافئ يبلل كتفي. أقول لها، "آسف عمّا قلته صباحًا!"

"توقف!"

"لا. لم أقصد ما قلتله عن أنني لست محظوظًا. أنا محظوظ لأن لدي والدة مثلك."

تضمني بقوة أكبر إلى صدرها فضغطت يدي على الكرة فألاحظ أنها مثقوبة. أكمل، "آسف، لكن يجب أن أخرج."

تبتعد عني قليلًا، لكنها لا تزال تمسك كتفي. تنظر إليّ بعينيها المدميتين تطلب تفسيرًا.

"أريد الاطمئنان على من تبقى من أصدقائي،" أجيب بهدوء.

تُنزل والدتي يديها عن كتفي وتهز رأسها متفهمة. تلاحظ أمي الكيس بيدي للمرة الأولى، لكنها لا تسأل عمّا فيه.

أرمي الكرة المثقوبة جانبًا وأخرج من الخيمة متجهًا لعائلة أسيد.

***

أصل الخيمة التي تنزح عائلة أسيد فيها. أنادي عليهم فيخرج أخوه الصغير. أتردد بإعطائه الكيس لثوان، لكن أقول لنفسي بأنه سيعرف عاجلًا أم آجلًا. أغلق الكيس وأعطيه إياه وأطلب منه ألّا يفتحه وأن يعطيه لأمه أو أبيه. يوافق على طلبي ويدخل الخيمة، وأتجه أنا مبتعدًا للسؤال عمّن تبقى من أصدقائي.

بضع أمتار وأبدأ بسماع الصراخ والبكاء القادم من الخيمة خلفي.

كان يضع أسيد الساعة دومًا. ساعة تشير إلى الوقت، لكنه لم يمتلك الوقت نفسه. كان لديه الكثير من الأحلام، لكن ليس الوقت لتحقيقها. ربما هنا ليس لدينا الحق لنحلم مثل الآخرين. ربما لدينا الحق في الكوابيس فقط.

يسقط صاروخ آخر بعيدًا عني، لكنه قريب عن غيري. هذا الذي أشعر به الآن سيشعر به آخرون بعد ثوان، مثلما شعر به عشرات الآلاف من قبلنا.

كم من ألف يجب أن يموت قبل أن ينظر لنا العالم على أننا بشر مثلهم؟

أواصل السير بين الخيام وأنا أحاول تجنب أن يرتطم بي أحد من الراكضين نحو الانفجار، أو هربًا من المكان.

انفجار آخر لكنه أقرب قليلًا. أفكر بالعودة إلى والدتي. على الأقل سنموت معًا لو تم قصفنا. حينها سنجتمع مجددًا مع أخي وأبي. أتذكر الوقت الذي أمضاه أخي بدراسته دون أن يتخرج، وكم من شهر انكب أبي على خلق شخصيات روايته دون أن تكتمل قصصهم، تمامًا كما حصل معه ومع أخي ومع غيرهما الكثير.

هل ستكون نهايتي مثلهم؟ نهاية دون نهاية...

أضحك عندما أتذكر الوقت الذي أمضيته أتمرن على كرة القدم كي أصبح لاعبًا عالميًا. أنفض الحلم عن رأسي؛ فأنا لا أريد أن أصبح عالميًا في عالم تخلى عنا.

الآن هذا عالمنا، حيث يقف الفقدان عند باب كل خيمة، ويتربص بنا الموت خلف كل منعطف قد يفاجئنا بأية لحظة. كل حلمي الآن أن يغادرنا القهر لفترة كي نرمم أرواحنا، لكن يا تـ

******

حساب الكاتب على إنستغرام:

Abdullah Abu Snaineh